
أدب الفكرة
من دثار التفكير إلى شعار التعبير

الطبعة الأولى
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م



الكويت- الجهراء- القيصرية القديمة- مجمع كابيتول مول- السرداب- محل ٢٤
Website : www .daradahriah .com
E-mail : daradahriah@gmail .com
(+965) 99627333 - (+965) 51155398

الموزعون المعتمدون

دار أندلسية للنشر والتوزيع
(الكويت)
darandalusia@hotmail.com
(+965) 94747176

دار التدمرية للنشر والتوزيع
(الرياض)
tadmoria@hotmail.com
(+966) 114925192

مكتبة الميمنة المدنية
(المدينة المنورة)
daralmimna@gmail.com
(+966) 558343947

مكتبة الشنقيطي للنشر والتوزيع
(جدة)
hassan_hyge@hotmail.com
(+966) 504395716

المكتبة الأسدية للنشر والتوزيع
(مكة المكرمة)
alasadi2000@hotmail.com
(+966) 125273037

مفكرون الدولية للنشر والتوزيع
(مصر الجديدة)
mofakroun@gmail.com
(+2) 01110117447



تأليف

أ. طلال مساعد العامر النجدي

دار الظاهرية للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحیم

مقدمة

الفكرة هي الصورة الذهنية لأمرٍ ما.

وهي نتيجة التفكير، والتفكير هوأحد مميزات النوع الإنساني، فقدرة الإنسان على توليد الأفكار يترافق مع قدرته على الاستنتاج والتعبير عن النفس.

هذا المعنى الدقيق للفكرة؛ لكن الفكرة تعني أيضاً حسب معطيات التجربة الإنسانية والتداول اللغوي؛ اشتمال جهد الإنسان أوقوله على معنى أوغاية أوهدف إذا خلا من ذلك عد تافهاً.

فالأدب في هذا السياق هوالأدب الذي له معنى وغاية وهدف، لا الأدب الذي لا يحمل مضموناً أوأن مضمونه تافه ضحل، والفكرة فيه مضمحلة، في هذه الحالة يحق لك أن تتساءل، إذن أين الفكرة في هذا الإنتاج؟.

نعم قد يمارس الإنسان الكتابة، ويكون مضمون ما كتب هزيلاً، إذا كان يريد أن يجرب الكتابة ويتمرن عليها ويكتشف قدراته، لا أن ينشر هذه المسودات وهذا التجريب، إنه ينبغي عليه ألاَّ ينشر إلاَّ بعد أن يتقن الكتابة، وأول درجات الاتقان فيها هوتكامل الفكرة وتماثل الغاية التي يكتب لأجلها.

إن أدب الفكرة يقابل أدب اللا فكرة إن جاز التعبير، والفكرة هنا تعني أن يكون عند الإنسان الكاتب شيء يستحق أن يقال؛ معاناة معتقد هاجس توجه مقاومة تجربة حياة.. أما أدب اللا فكرة فهوأن يكتب الإنسان وليس لديه ما يريد أن يقول، أوليست لديه فكرة ما يريد الحديث عنها، والذي قد يكون نتيجة الترف

أوالعبث أو.. الجنون، كما يتمخض الجبل عن فأر، أو كمن يصف البحر فيقول لك: أنه بحر، وفسر الماء بعد الجهد بالماء.

ما كنت أتصور أن أتحدث عن أدب بلا فكرة، حتى وجدت بالفعل الزبد الرابي مما يسمى زوراً وبهتاناً روايةً أوشعراً أونصاً أوخواطر، وقد التقيت فعلاً بأناس أرادوا أن يكونوا روائيين وكتاباً، فكانوا بالفعل كتاباً في الطباعة الاحترافية والإعلان وحفل التوقيع، أما في الكتابة فليسوا كذلك، ما أسرع ما تبخرت هذه الرواية وكاتبها والمشهد بأسره، وكأنها قطرة ماء وقعت على رمال ملتهبة في الصحراء.

وفوق هذا هوأوهي لا يملك أي مؤهل من مؤهلات الكتابة.

لا يعرف النحوولا البلاغة، ليست لديه ذخيره من المفردات ولا رصيد من ثقافة. نعم؛ لقد التقيت بأمثال هؤلاء يتكثر أحدهم بألقاب الكتابة والثقافة وهولا يملك منها أدنى رصيد، هل ما كتب هذا وأمثاله يمثل أدب فكرة ؟ أي فكرة يحظى بها هذا وأمثاله إن لم يحفل إهابه بشيء من المعرفة.

وهل يمكن أن أوازي إنتاجه برسالة الغفران؟ أوقصائد الأعلام من الشعراء وما تحمل من أفكار ملهمة عبر التاريخ؟ أو بكتابات الجاحظ الذي وجد في حياة الحيوان صفحة صادقة للكشف عن الحياة الفطرية بل لسبر طباع الإنسان، أو الأصفهاني في أغانيه، أو ابن قتيبة في عيون أخباره أو الهمذاني في مقاماته، أو رواية «مدام بوفاري» مثلاً للروائي الفرنسي «غوستاف فلوبير»، والتي قضى في كتابتها خمس سنوات ما بين ١٨٥١م- ١٨٥٦م وأتلف في سبيلها آلاف المسودات، والتي حملت رؤية عميقة ونقداً شجاعاً للمجتمع الفرنسي آنذاك، بل إنها دفعت

به للوقوف أمام المحكمة للدفاع عن نفسه حيال القضايا التي رفعت عليه بسببها، أورواية «كوخ العم توم»، التي كانت كما قيل عنها حفنة من الصفحات أشعلت ثورة وغيرت مسار التاريخ، أو «دوستويفسكي» الذي قال بعض النقاد عن أدبه أن روايات «دوستويفسكي» أفكار تحيا في أشخاص.

وأضيف أيضا كُتّاب مطلع النهضة العربية كالرافعي والمازني ومحمد كرد علي ومحمود شاكر وعلي الطنطاوي.

ولا أذهب بك بعيداً؛ حيث إن من الكتاب المعاصرين من كتب حول قضية أوفكرة، وقد تهيأ لها بالمعرفة الواسعة والفكر المستنير والأسلوب العذب والكتابة الفنية، ونجح فيما كتب نجاحاً باهراً، منهم نجيب الكيلاني وعبدالإله بن عرفة، ورضوى عاشور في روايتها المدهشة «ثلاثية غرناطة» والتي تشعر عند قراءتها أنها ربما كانت آخر النازحين من جحيم الأندلس الدامي، وسعود السنعوسي الذي عالج بحضور لافت في روايته «ساق البامبو» قضية تعتبر من أهم القضايا الاجتماعية في المجتمع الخليجي.

إن الكتابة الإبداعية في أي جنس من الأجناس الأدبية، لا يمكن أن يجتاز نفق المحنة بنجاح إلاَّ بعد أن تتشكل فيه رؤية تشعر الكاتب بمسئولية الكتابة، ومن جملة ما تقدم تنثال عدة أفكار تشكل منها هذا الكتاب، أدب الفكرة الذي أتحدث فيه عن جملة من الأفكار والرؤى، التي جرت في عرصات الأدب وتبارت في حلبته.

- **الفكرة الأولى:**

السيرة الأدبية للحركة الإسلامية، وهي عبارة عن فيض إبداعي وتجربة

أدبية ملتهبة ظلت لعقود حبيسة التجاهل والاقصاء، الأدب المعطل عن الحياة الإسلامية لقرون خلت، ها هويجرى في ينابيعه ماء الحياة النمير من عمق الإسلام ومقاصده، والذي نُعت بالجمود، ومن صميم معاناة الاستعمار والاستبداد والسجون والمظالم والمحن، تنداح لآلئ الإبداع زاهية في أفق التجربة الإنسانية شعراً ومسرحاً ومقالاً وروايةً وسيرة ذاتية.

• **الفكرة الثانية:**

أغاني المربين، حديث عن الشعر العربي «بأهازيجه» وألحانه بوصفه مربياً، وفي كونه دواءً وبلسماً يأسوالجراح ويعالج النفس البشرية من أدوائها، الأدب في هذا المنحى يحمل أغلى أفكاره وأثمنها، إنه مخزون الحكمة الإنسانية الراسخ في الذاكرة الجمعية.

والتي منها الحكم والأمثال، وكليلة ودمنة والأدب الصغير لابن المقفع، والوصايا والتي هي مخاض تجربة وآثارة من علم وبقية من أدب من مثل وصية الشاعر أبي إسحاق الإلبيري:

تفت فـؤادك الأيـام فتا　　　وتنحت جسمك الساعات نحتا

ومثل وصايا العلماء، كوصية الإمام الغزالي «أيها الولد» والتي أوصى بها أحد تلامذته.

والبعد التربوي في الأدب هوأحد أنماط الرواية، إذ من أنماطها رواية التنشئة أوالتربية من نسل رواية التنشئة الألمانية «فيلهيلم ما يستر لجوته» قصة تعلم شاب وتحوله، وهي تصف الدرب الذي يستهدي به رجل لمعرفة نفسه، وهونمط من الكتابة شاع في القرن التاسع عشر، وفي هذا النمط التربوي رواية «الأوهام

المنقشعة» لـ«بلزاك»، ورواية «التربية العاطفية» لـ«فلوبير»، ورواية «بيلامي» لـ«مبوباسان»[١].

• **الفكرة الثالثة:**

لوأدركته لوليته القضاء، هنا نيمم عنايتنا شطر الحكمة المتجردة والفكرة الخالدة التي تتحرر من قيود الزمان والمكان، وتنطلق في عالم الإنسانية الرحب، إننا هنا نلتقي بعمر بن الخطاب ﷺ في إعجابه المثير والمتكرر بشاعرية الشاعر الجاهلي «زهير بن أبي سلمى» وبحمولتها الأخلاقية وغاياتها الإنسانية، التي كفلت لها البقاء على الرغم أوهاق الجاهلية، يقول عمر لأبناء ممدوحيه وهم يفخرون بعطاياهم لزهير:

«ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم».

• **الفكرة الرابعة:**

الملاحم الشعرية من التاريخ إلى الأدب، إنه فن معبأ بالفكرة، فهويتحدث عن وشائج القيم بين التاريخ والأدب، الأدب الملحمي الذي هواستدعاء لشخصيات فاعلة في التاريخ وأعلام بارزة في الحضارة، هدفه تقويم الحياة المعاصرة التي تعاني من أدواء التمزق والتخلف والحروب والاستبداد، من خلال عرض هذه النماذج الملحمية وبث الروح في الحياة المعاصرة، بواسطة الإبداع الأدبي متحركًا في شخصيات التاريخ.

• **الفكرة الخامسة:**

مدونات في أدب الإصلاح السياسي، ومضات من الموقف السياسي للشعر

---

(١) ينظر؛ الأجناس الأدبية، أيف ستالوني، ص ١٣١.

العربي؛ أصداء ذلك التوقيع الشهير، إما اعتدلت وإما اعتزلت، ثورة الشعر السلمية في وجه الظلم.

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

- **الفكرة السادسة:**

المعري في ذمة التاريخ، مذكرة دفاع عن أبي العلاء المعري في دعوى زندقته، استنطاق الحقائق من وراء حجب التاريخ، وفي ظل فقدان الوثائق وخلف قضبان الحبس، ووراء هذه اللفائف المعقدة تكمن الحقيقة، بين عالمنا وعالمه برزخ لا يبغيان خانته الذاكرة فاستبدت به الذكرى.

أزعم أنني وصلت إلى هذه الحقيقة المخدرة خلف هذه الحجب، من خلال منهج البحث الذي أنارت لي قواعده في ضباب هذه القضية المعتم.

هذه حزمة من الأفكار قد التفت بوشيجة الأدب، دثارها الفكرة وشعارها الأدب والشعر.

الشعر عاطفةٌ تقتاد عاطفةً وفكرةٌ تتجلى بين أفكار

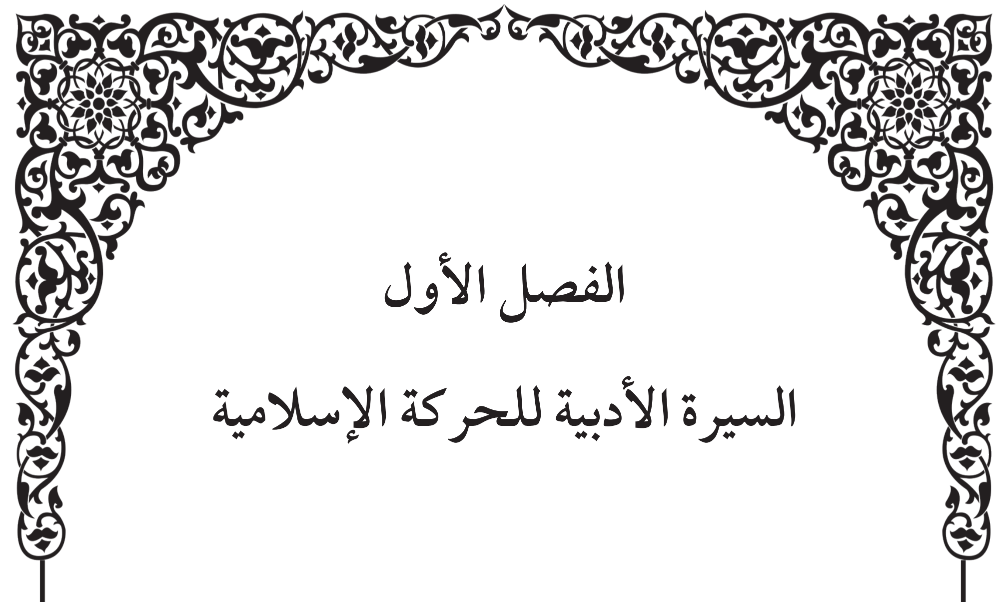
قد كان حسان جيشاً في قصائده أشد من كل زحاف وجرار

كم حكمة فيه لا تفنى بشاشتها ومن حديث على الأيام سيار

المؤلف

طلال مساعد العامر النجدي

الكويت في ١٥/ ٠٨/ ٢٠١٩م



الفصل الأول

السيرة الأدبية للحركة الإسلامية

- جذور الأدب الإسلامي الحديث.
- أدب الحركة الإسلامية المعاصرة.

– في الشعر.

– في الفن القصصي.

– في السيرة الذاتية.

– في المقالات الأدبية.

الفصل الأول: السيرة الأدبية للحركة الإسلامية

• جذور الأدب الإسلامي الحديث:

على الرغم من تقصير الحركة الإسلامية بمجموع تياراتها المختلفة، ورموزها المتعددة، في الجانب الأدبي بمجمل فنونه، إلّا أننا لا نستطيع أن نغفل إسهامها، أوحضورها في المشهد الأدبي على أقل تقدير.

ولعل تصوراً أولياً لما نختلف أونتفق في تسميته ب«الأدب الإسلامي» قد يشكل نواة لهذه السيرة الأدبية للحركة الإسلامية، وهذا الأدب الإسلامي لم يأت من فراغ بطبيعة الحال، وإنما له جذور قد تولد منها ومنابت قد تقلب في أصلابها. أهمها:

١ – **أدب فجر الإسلام**؛ من خطابة وشعر، وما حمل في طياته من قيم الإسلام وأفكاره والدعوة له، والذي يظهر في خطب النبي ﷺ وخطب خلفائه الفصحاء كأبي بكر وعمر وعلي ﷺ، وكذلك في شعر حسان بن ثابت وشعراء الدعوة في ذلك العصر؛ كعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير.

ففي آدبهم التقت قيم الحياة النبيلة بسحر البيان الآسر، فتفجرت ينابيع الحكمة والأدب، فلا يمر بذكر عصرهم كاتب في الأدب إلا وينتجع قلمه بليغ كلمهم، ففيها قوانين الحياة ومنتهى الحكمة وزبدة التجربة الإنسانية.

فما كان لأديب يؤرخ للأدب أن يتجاوز تراثهم الأدبي، فهذه أمهات كتب الأدب العربي تنتقي من هذا التراث الزاخر ما يكون نموذجاً في البلاغة شعراً كان

أونثراً ، كالجاحظ في البيان والتبيين، وابن قتيبة في عيون الأخبار، والنويري في نهاية الأرب، والقيرواني في زهر الآداب، حتى قال هذا الأخير في كلام الخلفاء الراشدين: قد علقت بذيل ما أوردته، والحقت بطرف ما جردته، من كلام سيد الأولين والآخرين، ورسول رب العالمين ﷺ وعلى آله الأخيار الطيبين الطاهرين، قطعةً من كلام الخلفاء الراشدين قدمتها أمام كل كلام، لتقدمهم على الخلق، وأخذهم بقصب السبق، وهم وكما قال بعض المتكلمين يصف قوماً من الزهاد الواعظين: جلوا بكلامهم الأبصار العليلة، وشحذوا بمواعظهم الأذهان الكليلة، ونبهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها عن سوء عادتها، فشفوا من داء القسوة، وغباوة الغفلة وداووا من العي الفاضح، ونهجوا لنا الطريق الواضح.

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حسناً ويعبده القرطاس والقلم[١]

وقد وجدنا زيادة على ما ترك العصر الجاهلي من آداب وأغراض، عدداً من الأفكار الجديدة التي تحلت بها آداب العصر الإسلامي، كالعقيدة الإسلامية وتوحيد الله تعالى ومدح الرسول ﷺ، والجنة والنار، والصبر والتضحية، والحنين إلى الديار المقدسة، والإخاء والإيثار، والتقوى ورعاية مصالح الرعية، والعدل والقيادة.

وفي هذا المقام تكفي الإشارة عن طول العبارة؛ حيث لملم أطراف ما تقدم حول الخصوصية الأدبية الإسلامية في عصرها الأول ما حدثت به أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- في حديث الإفك، فهوبحق من عيون الأدب، ظهرت فيه متانة اللغة، وجزالة اللفظ، وجمال الأسلوب، ولطف الإثارة، وإشراقة

(١) زهر الآداب، القيرواني، ج ١ / ٨٦.

التعبير، وعمق التجربة النفسية، وصدق سرد الذات.

قال الأديب علي الطنطاوي: هذا الحديث الذي حدثت به أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- منطلقة على سجيتها هوفي الواقع قصة أدبية كاملة، فيها كل صفات القصة[١].

وقال عنها: لم تتخرج من الجامعة، لم تكن في أيامها جامعات ولكنها كانت ولا تزال كما كانت تدرس آثارها في كلية الآداب، كما تدرس أبلغ النصوص الأدبية[٢].

ويصور الصحابي الجليل أبوأحمد بن جحش ﵁ مشاعر الشوق لمكة بعد هجرته وسلوى الإيمان بالله:

لمـــا رأتني أم أحمـــد غادياً بذمة من أخشى بغيب وأرهب

فقلت لها بل يثرب اليوم وجهنا وما يشأ الرحمن فالعبد يركب[٣]

٢- شعر الفتوح، والذي تغنى بمعاني الجهاد والشهادة والبأس والشجاعة، ولعل قصيدة مالك بن الريب التي قالها قبيل وفاته، وبعد قفوله من ميدان الجهاد، خير شاهد على شعر الجهاد والفتوح، والتي منها قوله:

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار افتتان بعض شعراء العصر الحديث المنادين بالتجديد والحداثة بهذه القصيدة، ومنهم الأديب الشاعر د. غازي القصيبي إذ

(١) أبوبكر الصديق، علي الطنطاوي، ص ١٢٨.
(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص ٣١.
(٣) السيرة النبوية، لابن هشام.

يقول: هذه أعظم القصائد في شعرنا العربي كله قديمه وحديثه، وخشية أن تروع هذه الجملة أحداً أود أن أسرع فأضيف أن هذا حكم شخصي بحت، ترجمته أن هذه أقرب قصيدة في شعرنا العربي إلى قلبي.

كما أنها كشفت جانباً من المشاعر الإنسانية التي تمخضت عن حركة الفتح الإسلامي؛ من نوىً واشتياق وصبر وغربة.

لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا مزار ولكن الغضـــا ليس دانيا

وبالرمل مني نســـوة لوشهدنني بكين وفديـــن الطبيب المداويا

فمنهن أمـــي وابنتاها وخالتي وباكية أخرى تهيـــج البواكيا

٣- أدبيات الفرق الإسلامية؛ كالمعتزلة والشيعة والمرجئة والخوارج وأهل السنة، وما نشأ بينها من مناظرات ومعارضات، حتى تأثرت بذلك الحركة الأدبية، انظر تأثر العباس بن الأحنف مثلاً بمشكلة القدر في غزله إذ يقول:

فأكثروا أوأقلوا من إســـاءتكم فكل ذلك محمول على القدر[1]

أوكقول فروة بن نوفل الخارجي يذكر التحكيم:

نقاتـــل من يقاتلنـــا ونرضى بحكم اللـــه لا حكم الرجال

وفارقنـــا أبا حســـن عليا فما من رجعة أخرى الليالي[2]

أوقول ثابت بن قطنة في تبنيه لتصورات الإرجاء:

يا هند فاســـتمعي لي إن سيرتنا أن نعبد الله لم نشـــرك به أحدا

---

(١) الموشح مأخذ العلماء على الشعراء، المرزباني، ص ٣٦٤.

(٢) شعر الخوارج، إحسان عباس، ص ٤٣.

ولا أرى أن ذنبـــا بالغ أحداً م الناس شركا إذا ما وحد الصمدا[1]

٤- **الأدب الصوفي**؛ والذي نشأ في غضون القرن الثاني للهجرة تقريباً، وقد أملته التغيرات التاريخية للفكر الإسلامي، من انفتاح على الثقافات المختلفة والتبادل المعرفي مع الأمم الأخرى، بالإضافة إلى حياة البذخ والترف والتحضر، التي هيمنت على عواصم العالم الإسلامي، فجاء الأديب الصوفي الذي استشعر مسئوليته الدينية، في ظل هذا الاحتكاك بالثقافات الأخرى، وما تولد منه من انفتاح على أنماط مختلفة من أنشطة الفكر والحياة، في محاولة منه لإعادة التوازن الإيماني والديني للمجتمع المسلم، من خلال بث معاني الزهد والخوف من الله تعالى والدعوة إلى الورع والتقلل من الدنيا، وهوطور التصوف السلوكي، وهوعماد أدب الوعظ، الذي نجده ماثلاً في دواوين أبي العتاهية ومحمود الوراق وأبي إسحاق الألبيري في الأندلس.

وهوباب حافل بالموضوعات مثل التوبة والاستغفار والصبر والمناجاة، كقول عبدالرحيم البرعي مثلاً:

وفي الغيب للعبد الضعيف لطائف بها جفت الأقلام وانطوت الصحف

وإني لمستغن بفقري وفاقتي إليه ومســـــتقووإن كان بي ضعف

وفي آداب التصوف هذه تجربة نفسية إيمانية فريدة.

وقد تحولت هذه الرياضة النفسية إلى مدارس، فيها طرق وشيوخ ومريدون ومواجيد وزوايا وخلوات، لها أدبياتها الخاصة التي تنتظم فيها جملة معارفها، كالحكم العطائية مثلاً والتي كانت لها عناية خاصة عند مدارس التصوف قاطبة،

(١) الأغاني، الأصفهاني، ج ٦٤ / ٢٦٩.

منها مثلاً:

«إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب، من الشهوة الخفية وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد، انحطاط عن الهمة العلية».

وفي بحث الأديب د. زكي مبارك التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، دلائل وافية على هذه العلاقة الوطيدة بين التصوف والأدب.

وقد أتحف الأدب الصوفي الحركة الأدبية ألواناً من الابداع، المعبر عن التأمل والإيمان، الذي هوحركة صاخبة وفاعلية موارة في سكون النفس وسكينة الذات، فهوتقابل خلاق: ضدان مهما استجمعا حسنا.

فالقصيدة المنفرجة مثلاً ذات الإيقاع السريع تنطلق من مركز الإيمان الثابت واليقين الجازم إلى آفاق النفس والكون، ففي بحر الخبب تجري مراكب النجاة لتغيث الصارخ الملهوف، وهي للعالم الصوفي أبي الفضل بن النحوي، ولتعبيرها الموحي ونسيجها المبتكر ودوران معناها مع الشدة والفرج، شرحت مرات وعورضت مرات ومرات، حتى ظن بعضهم أن من قرأها في شدته أتته فيوض الفرج، وقد صدقوا إذا عنوا الفرج الذي تسبغه معانيها على النفس الإنسانية.

اشـــــتدي أزمـــــة تنفرجي — **قـــــد آذن ليلـــــك بالبلـــــج**

وظــــلام الليل له ســــرج — **حتى يغشـــــاه أبوالســـــرج**

وســـــحاب الخير لـــــه مطر — **فإذا جـــــاء الإبـــــان تجي**[1]

وكيف لا يأنس المنكوب برؤية الفرج إذا ما قرأ في هذه الأبيات، قول الله

---

(١) السريرة المنزعجة لشرح القصيدة المنفرجة، علاء الدين البصروي، ص ٤٣.

تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[١]، وقول الرسول ﷺ: (اعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً)[٢].

وفي مطلع الحياة الأدبية في العصر العباسي كان أحد سلاطين الشعر العربي الشاعر أبوالعتاهية، وهومبدع الشعر الإيماني الذي كانت كل قوافيه وأوزانه السنة تلهج بالذكر والتسبيح والخوف والخشوع والزهد، يقول:

لم تبك نفســـــك أيام الحياة لما   تخشى وأنت على الأموات بكاء

أستغفر الله من ذنبي ومن سرفي   إني وإن كنت مســـــتوراً لخطاء

لم تقتحم بي دواعي النفس معصية   إلاَّ وبيني وبين النور ظلماء[٣]

ألا ترى هذا البيت يغذ السير إلى قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهومؤمن...».

ثم جاء طور آخر من أطوار الأدب الصوفي، وهوطور التصوف الفلسفي، الذي ظهرت في أدبياته معاني الفناء والحلول والاتحاد، وقد رفع لواء أدبياتها الحلاج، وابن الفارض في تائيته:

سقتني حميا الحب راحةُ مقلتي   وكأسي مُحياً من عن الحسن جلت

وفيها تصريح باعتقاد الحلول والاتحاد، إذ يقول:

وبي موقفـــــي لا بل إلي توجهي   كذاك صلاتي لي ومني كعبتي

---

(١) سورة الشرح:٦.

(٢) انظر: مشكاة المصابيح، ٢ / ٣٢٨.

(٣) أبوالعتاهية أشعاره وأخباره، ت: شكري فيصل، ص ١.

وفارقْ ضَلالَ الفَرْقْ فالجمع منتج هدى فرقة بالاتحاد تحدت[(١)]

هيمن عليها الشطح الصوفي، ونظرية ختم الولاية، ومثالية وإغراب وتعقيد، لم تسعف الحركة الإسلامية المعاصرة في تأسيس خطاب أدبي واضح المعالم، بخلاف التصوف الروحي والسلوكي الذي ظل لقرون ملهماً لأدب النفس المؤمنة.

٥ - أدب الفقهاء والمدارس العلمية، وهو جانب قد يبدو الأدب فيه باهتاً أو كلاً عليه لأدنى قراءة، ولكن المتتبع له والمتأمل فيه يجد حركة فاعلة، قد طغى فيها وهج الفكر والحياة العلمية على الخيال والشاعرية، لم تخل من دفقات شعورية وتعبير صادق وتجربة حية.

وهذا الجانب الأدبي، وإن كان يعوزه الخيال والإبداع في بعض مناحيه، إلّا أنه كان كفيلاً في وصف الحياة العلمية وآدابها وقيمها، بالإضافة إلى حديثه عن السيرة الذاتية للعلماء والصعوبات التي اعترضت طريقهم.

فهذا الإمام «ابن دقيق العيد» يصف مجالس العلم ومناهج المناظرة والبحث في لغة شاعرية؛ يقول:

ولله قوم كلما جئـــت زائراً وجدت نفوساً كلها ملئت حلماً

إذا اجتمعوا جاءوا بكل طريفة ويزداد بعض القوم من بعضهم علماً

تساقوا كؤوس العلم في روضة التقى فكلهم مــــن ذلك الري لا يظمأ

نفوس على لفظ الجدال قد انطوت فنبصرها حرباً ونعقلها ســـلماً

وما ذاك من جهل بهم غير أنهم لم أسهم شتى تنكبت المرمى

---

(١) ديوان ابن الفارض، ص ٦٩.

أولئك مثل الطيب كل له شذى ومجموعه أذكى أريجا إذا شما[١]

والإمام أبوسليمان الخطابي المحدث اللغوي كان يعاني الغربة، وقد كانت من نوع مختلف عن غربة الديار والأهل والأوطان، إنها غربة التفرد في الاهتمامات والطموحات، والتي بات يتحدث عنها منذ عقود علم النفس في بعض فروعه، تحدث عنها العديد من أعلام الحركة العلمية والفقهية في الحضارة الإسلامية كالإمام الغزالي في المنقذ من الضلال، والإمام ابن الجوزي في صيد الخاطر، يقول الخطابي:

وليس اغترابي في سجستان أنني عدمت بها الإخوان والدار والأهلا

ولكنه ما لي بها من مشـــــاكل وإن الغريب الفرد من يعدم الشكلا

ولعل هذا المعنى الوجداني والذي تتجلى فيه المعاناة والتجربة الشخصية يلوح في محيا مقطوعته الفريدة التي أفضى بها إلى الطائر الغريد.

تطل عليك من هذه المقطوعة طبيعة ساحرة وحديقة غناء ينظمها لفظ ساحر وخيال جامح خصب، يتغيّا شاعرُنا من خلالها فيما أظن انعتاقاً من قيود المادة، لتنساب روحه بين حفيف الأشجار وتغاريد الطيور إلى أفق إنساني رحب، إنه تغريد الطيور حين يترجمه الشعراء فناً وإبداعاً وجمالاً.

قال أبوسعيد الخليل بن محمد الخطيب:

كنت مع أبي سليمان الخطابي فرأى طائراً على شجرةٍ، فوقف ساعة يستمع ثمَّ أنشأ يقول:

يا ليتني كنتُ ذاك الطائرَ الغَرِدا من البريةِ منحـــــازاً ومُنْفَرِدا

(١) صفحات من صبر العلماء، عبدالفتاح أبوغدة، ص ٣٨٢.

في غُصنٍ بانٍ دَهَتْهُ الريحُ تَخْفِضُهُ طوراً وترفعُـــــهُ أَفْنانُه صُعُدا

خِلْوالهمومِ سوى حبٍّ تَلَمَّسَهُ في التربِ أونَغْبَةٍ يروي بها كَبدا

ما إن تُؤَرِّقُهُ فِكْــــرٌ لرزقِ غدٍ ولا عليهِ حسابٌ في المعادِ غدا

طوباكَ من طائرٍ طاباكَ ويحَكَ طِبْ من كان مِثْلَكَ في الدنيا فقدْ سَعِدا[1]

وهواجس الشاعر والإمام الشافعي علي بن عبدالعزيز الجرجاني، والتي بثها في قصيدته:

يقولون لي فيك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجمها

أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أكرمته عزة النفس أكرما

وهي في الحقيقة هواجس مستحقة في رحلته الشاقة للبحث عن مكانة في مجتمعه، لم تطلعنا عليها إلاَّ نافذة الأدب والإبداع من مجمل منافذ إنتاجه العلمي والثقافي.

ولا أكون مغالياً إن قلت؛ إن هؤلاء الفقهاء والعلماء كان لهم نشاط وجداني محموم، وصراع نفسي مكتوم، أفصح عنه طائفة قليلة منهم، كانت هذه النفثات محل ترحيب عند د. القصيبي مثلاً كممثل لتيار التجديد، وهذا يظهر في كتابه «الإلمام بغزل الأئمة الأعلام».

وإنها لمفارقة عجيبة عشق وهيام ولوعة تدور على السنة فقهاء ومفتين وعلماء، تؤكد درجة الوعي الذي يتمتع به هؤلاء العلماء، فالدرس والفقه لم يقف حائلاً أمام إنسانيتهم والتي من مظاهرها حياتهم العاطفية، ولكنه في تصوري

---

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي.

ضاعف المسئولية الأخلاقية على كواهلهم.

ولدى الفقهاء والعلماء علم واسع في العشق وأسمائه ومراحله وآثاره وآدابه وأشعاره، حتى غدت كتاباتهم مراجع في هذا الصدد، كما نجد ذلك عند الإمام الفقيه الأصولي محمد بن حزم في كتابه «طوق الحمامة»، والإمام ابن الجوزي في «ذم الهوى»، والإمام ابن القيم في «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

ولعلك تقف دهشاً من الموقف الواعي المسئول المحايد حيال ظاهرة الحب عند الإمام ابن حزم، والذي يستدعي فيه مسئوليته الفقهية، فيقول في بيان ماهية الحب: الحب -أعزك الله- أوله هزل وآخره جد، دقت معانيه لجلالتها عن أن توصف، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة، وليس بمنكر في الديانة ولا بمحظور في الشريعة، إذ القلوب بيد الله عز وجل[١].

وربما يعتذر للعشاق في خلل هذا السياق.

وتجد عندهم أيضاً تثمينهم المشاعر الفطرية النبيلة بين آدم وحواء، والأفق السامي الذي رنت له أبصارهم جعلهم يطرزون بالحب والعشق المديح النبوي، فيستدرون عواطفهم به بمثل قولهم:

لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكـــــر البان والعلم

فكيف تنكر حباً بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم

يا لائمي في الهوى العذري معذرة مني إليـــــك ولو أنصفت لم تلم

والجانب التطبيقي في حياة الفقهاء، والذي تكشفه لنا كتب التراجم عن سيرهم ومواقفهم، يفيض بالحياة العاطفية والذي كان مظهره أشعارهم ورسائلهم،

(١) طوق الحمامة، ابن حزم، ص ٦٠.

فالشيخ عبدالغفار بن نوح يقول في فتوى شعرية:

أنا أفتي أن تـــرك الحب ذنب آثم في مذهبـــي من لا يحب

ذق على قولـــي مرارات الهوى فهوعذب وعذاب الحب عذب

كل قلـــب ليس فيه ســاكن صبوة عذرية مـــا ذاك قلب

أوقول داود بن عيسى أحد فقهاء الأحناف:

عيون عن الســـحر المبين تبين لها عند تحريك القلوب سكون

إذا أبصرت قلباً خلياً من الهوى تقول له كـــن مغرماً فيكون[١]

وتجد مثل هذا عشرات بل مئات، ولواستخلصت أشعار الغزل من هذه المدونات لكانت دواوين في بابها.

بل إن من الفقهاء المعدودين من ألف في العشق ترفقاً بالمحبين وسلوى للعاشقين، كالإمام الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي صاحب أشهر المختصرات الفقهية في المذهب الحنبلي، والذي عكف العلماء عليه شرحاً وإيضاحاً؛ حيث ألف كتابه «منية المحبين وبغية العاشقين».

يقول في غرة كتابه: أحمد من جعل عذاب الغرام عذباً سديداً وسقام الهيام صعباً شديداً، وقتيل المحبة هدراً شهيداً... وأشكر من جعل المحبة سجية العقول السليمة، والعشق المباح شيمة الطباع المستقيمة[٢].

٦- يضاف إلى ما تقدم أصل مهم، في تصوري أنه من أعظم منجزات الأدب

(١) الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تقي الدين الحنفي، ج ٣/ ٢٢٥.
(٢) منية المحبين وبغية العاشقين، مرعي الكرمي، ص ٤٢ .

الإسلامي ومن أهم أصوله، هوالمدائح النبوية، والذي أصبح غرضاً مستقلاً من أهم أغراض الشعر العربي، يتراوح عبر تاريخ الأدب العربي بين الجودة والركاكة، والجدة والقدم، والإبداع والتقليد.

وقد تنقلت المدائح النبوية بين أطوار التاريخ الأدبي نقلات مهمة، يربط بينها خيط رفيع جمع بين أمشاجها، منعها من الانفلات في فجوات التاريخ، فمن رحم فجر الدعوة الإسلامية انبثقت المدائح النبوية، على لسان حسان بن ثابت ﵁ وإخوانه من شعراء الصدر الأول فكانت أزهى أناشيد الحب الطاهر للنبي الكريم ﷺ، ثم ظهرت في عصر الأحزاب السياسية على ألسنة الشيعة وسيلة لحب آل البيت، يمثلهم في ذلك الكميت ودعبل الخزاعي، ثم ظهرت على لسان الكرامة ضرباً من حديث العجائب والمعجزات في بردة التصوف، محتفة بأنغام عذاب يصدح بها البوصيري ومريدوه، وقد غدت المدائح في هذا الطور مناجاة ملهمة «للطمأنينة» باعثه للخشوع والسكينة.

ثم بعد فترة ولأي جاء العصر الحديث محملا بتعبات جسيمة، أصبحت المدائح النبوية فيه دائرة بين نوح للثكالى وبكاء على ماض تليد، وبين أهازيج البطولة وهتاف الثائرين والمطالبين بالعدالة، والنصر المرتقب، على لسان شوقي والبارودي وعلي محمود طه، بل وحتى بدر شاكر السياب.

فإن ما قاله حسان بن ثابت ﵁ في النبي ﷺ، في بيان مكانته والدفاع عنه، بصمة أدبية ميزت ذلك الزمن بأدبه الخاص، وظلت علامة في تاريخ الأدب العربي:

أَغَرُّ عَلَيْـــــهِ لِلنُّبُـــوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللَّهِ مَشْــــهُودٌ يَلُوحُ ويُشْهَدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمهِ ... إذا قَالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وكذلك بانت سعاد لكعب.

هذا بعض الرصيد الأدبي للحركة الإسلامية المعاصرة، والأصول التي يستند إليها أدبها، منذ فجر الإسلام، إلى منتصف القرن التاسع عشر.

- **أدب الحركة الإسلامية المعاصرة:**

- ظروف نشأته:

أما العصر الحديث، فإنه عصر نشوء التيارات الفكرية، والأحزاب السياسية، والتي جاءت على غرار سقوط الخلافة العثمانية، وانفراط عقد المنظومة العربية والإسلامية، في غضون ذلك اجتاحت قوى الغرب الاستعمارية جل دويلات العالم الإسلامي.

في هذه الأثناء نشبت صراعات ومعارك فكرية عنيفة بين تيارات الفكر في العالم العربي، منها من رأى تبني الفكر الغربي ومشاريعه لحل الأزمات والمآزق التي يرتكس فيها العالم العربي، متنكرين لماضيهم متحللين حتى من أمجاده، ومن هذه التيارات من آثر تحريم تقليد الغرب جملة وتفصيلا مكتفين بالتغني بالمآثر والأمجاد، وهناك تيارات كانت أكثر موضوعية توسطت بين هذين الفسطاطين.

انبثقت من هذه التجاذبات والصراعات دعوات وتيارات ومشاريع إسلامية؛ أهمها:

١- الحركة السلفية في الحجاز، على يد الإمام «محمد بن عبدالوهاب».

٢- الحركة الإسلامية في باكستان، على يد الإمام «أبي الأعلى المودودي».

٣- الدعوة إلى الجامعة الإسلامية، على يد الإمامين «جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده».

٤- جماعة الإخوان المسلمين، على يد الإمام «حسن البنا».

٥- حركات ومنظمات شيعية في إيران والعراق والبنان.

٦- تيارات إسلامية في المغرب العربي، تزعمها أمثال عبدالحميد بن باديس وعلال الفاسي.

وكما هومعلوم فإن لكل تيار من هذه التيارات أوالجماعات أوالتوجهات في العالم الإسلامي؛ لسانها الناطق والمعبر عن قناعاتها وتطلعاتها، فالتيار العربي الاشتراكي وحزب البعث والتيار التقدمي الليبرالي وغيرها، كلها كان لها لسانها الأدبي المعبر عن أفكارها وقضاياها وقيمها.

وكذلك كان التيار الإسلامي بمختلف توجهاته؛ كانت له قضاياه وأفكاره وقيمه ومخاوفه، التي حاول أن يعبر عنها من خلال الأدب العربي وفنونه، كل ما تقدم كان مؤذناً بولادة منهج جديد للفن الإسلامي ورؤية إسلامية لتوظيف الأدب في الحياة، والانتقال بالفكر الإسلامي من حيز الفكر إلى فضاء الإبداع، تحدث عنه الكاتب «محمد قطب» -رحمه الله- باستفاضة في كتابه: «منهج الفن الإسلامي».

ثم إن هناك ظروفاً استثنائية أعانت على تشكيل هذا الأدب، بالإضافة إلى جملة التصورات والمبادئ التي ينطلق منها، فقد عانت الحركة الإسلامية في كثير من بلاد العالم الإسلامي وإلى اليوم من الإقصاء والتضييق، وعانى أبناؤها من التهجير والسجن والتعذيب والاغتيالات والإعدامات، وهذه الظروف بحد ذاتها تعتبر تجربة قاسية عنيفة، ملهمة للكثير من الأعمال الإبداعية والأدبية، في الشعر والقصة والرواية والسيرة الذاتية والمذكرات وغيرها من فنون الأدب العربي.

• الحراك الإبداعي في أدب الصحوة:

وفيما يلي أسوق بعضاً من هذه الأسماء اللامعة والأعمال الرائدة في سماء الإبداع الأدبي، والتي أطلعتها لنا الحركة الإسلامية، إذ تركت وراءها في مسيرة الأدب أثاراً لا تنكر، وبعضها ترك دوياً أثر في حركة الأدب العربي تأثيراً بالغاً.

أولاً: في الشعر:

- «محمد إقبال»: شاعر الإسلام والذي صدحت بمناجاته أم كلثوم في آفاق العالم العربي، وتغنت بتسابيحه الشعرية أجيال التيار الإسلامي، كقصيدته «جواب شكوى»:

كلام الروح للأرواح يســـري فتدركـــه القلـــوب بلا عناء

هتفـــت به فطار بـــلا جناح وشـــق أنينه صـــدر الفضاء

ومعدنـــه ترابـــي ولكن جرت في لفظه لغة الســـماء

وقد التف حول إبداعات ترجمة وشرحا وتوظيفا أسطاين الثقافة العربية.

والشاعر «محمد إقبال» وإن كان قد جاء قبل ما يسمى بالصحوة الإسلامية؛ إلّا أن حركة الترجمة لإبداعاته الأدبية إلى اللغة العربية والتي أعقبت وفاته، كانت ملهمة للحركة الإسلامية وأجيال الصحوة؛ حيث تشكلت منها أدبياتهم وأناشيدهم، التي تتغنى بالمجد التليد، والنصر المرتقب، والمستقبل الزاهر، في ظل الدين الحنيف.

إن هـــذا العصر ليـــل فأنر أيها المســـلم ليل الحائرين

وســـفين الحق في لجِّ الهوى لا يرى غيرك ربان الســـفين

فهذا «د. نجيب الكيلاني» عميد الرواية الإسلامية، وأحد أهم أدباء جيل الصحوة القدماء، يتحدث عن أثر إقبال في تشكيله الإبداعي؛ إذ يقول: «لقد شغلني موضوع الأدب الإسلامي في فترة مبكرة من العمر. كانت قراءاتي للشاعر الفيلسوف محمد إقبال بداية اهتمامي الأساسي»[١].

وقبله قال عراب الأدب الإسلامي «سيد قطب» معجباً من التوأمة الأدبية بينه وبين إقبال: «كدت أتوافق أنا ومحمد إقبال في المعاني، وربما توافقنا في الألفاظ».

- الشاعر «عمر بهاء الدين الأميري»، شاعر المحاريب، وشاعر الإنسانية المؤمنة، قال «العقاد» عن ديوانه مع الله: «آيات من الترتيل والصلاة، يطالعها القارئ فيسعد بسحر البيان، كما يسعد بصدق الإيمان»[٢]، له أكثر من عشرين ديواناً.

إذا قرئ شعره حُسب صوفياً، ولكنه قد تخلص باقتدار من أوهاق التصوف، وترميزه المعقد؛ ففي قوله:

كلما أمعـــــن الدجى وتحالك	**شمت في غوره الرهيب جلالك**
وتـــــراءت لعين قلبـــــي برايا	**من جمال آنست فيها جمالك**
وترامى لمســـــمع الروح همس	**من شــــــفاه النجوم يتلوالثنا لك**
واعترانــــــي توله وخشـــــوع	**واحتواني الشعور أني حيالك**
ما تمالكت أن يخـــــر كياني	**ســـــــاجداً واجداً ومن يتمالك**

(١) مدخل إلى الأدب الإسلامي، د. نجيب الكيلاني، ص ٢٢.

(٢) ديوان مع الله، عمر بهاء الأميري، ص ٢٤٠.

تجد جبذة من غير زيغ، وكشفاً من دون بدعة، وسجودا للروح في محراب الكون الفسيح، لم يكد يسد مكانه شاعر فتراثه الشعري زاخر، بالإضافة إلى استجابته لجراحات أمته، فقد كان شعره حديثاً روحياً يجتاز حدود المادة التي تكبل بها عالمه الحديث.

- الشاعر «هشام الرفاعي»، من خلال معلقة الأدب الإسلامي الحديث:

أبتاه مـــاذا قد يخـــط بناني والحبلُ والجـــلادُ ينتظراني

هذا الكتابُ إليكَ مِـــنْ زَنْزانَةٍ مَقْرورَةٍ صَخْرِيَّـــةِ الجُدْرانِ

قصيدة تحدثت بصدق عن معاناة الدعاة وأبناء التيار الإسلامي، من أروع قصائد السجون، بالإضافة إلى ديوانه الثري بموضوعات الأدب الإسلامي.

- الشاعر «محمود حسن إسماعيل»، والذي احتضنت شاعريته الحركة الإسلامية من خلال مجلة المسلمون، وهي من مجلات الإخوان المسلمين في مطلع الخمسينات، صوره الشعرية الإسلامية تنم عن إيمان عميق، تغشاها مسحة صوفية صادقة، كما أنه شاعر من رواد الشعر المبدعين، وبطل من أبطال الكلمة المعبرة عن الإنسان وقضايا الحياة والحرية، أصدر الشاعر أربعة عشر ديوانا، جمعتهم مؤسسة سعاد الصباح الشعرية في مجموعة أعماله الكاملة، اهتم بالقضية الفلسطينية في إنتاجه الشعري، كتب عن معاناتهم عدة قصائد، منها قصيدة: على رماد فلسطين، اللاجئون بين غضب الطبيعة وغدر الإنسان.

تلفَّتي ها هُمُ في الأرض إخوتنا شعب برمته في العري يحتضرُ

مُشَـــرَّدُونَ بلا تيهٍ فلوطلبوا تجدُّدَ التّيهِ في الآفاق ما قَدَرُوا

ومن الشعر الحديث هذه التسبيحة الشعرية التي تفيض إيماناً ورقة:

مع الصلاة

صلاتي حياة

ونسكي حياة

ومحياي مهما يكن في حياتي صلاة

فإن عزف النايُ.. طوبى لتسبيحة في صداه

تكبر لله.. لا تستفيق من الحب والشوق

حتى تعانق نور الإله

- ومن العراق الشاعر «وليد الأعظمي»، شاعر الحماسة الإسلامية.

- والشاعر «محيي الدين عطية».

- والشاعر «يوسف العظم» من فلسطين.

- والشاعر «محمد المجذوب» من سوريا: شعره مزاج خاص وأيقونة متفردة، تجد فيه أحياناً مرآة مشاعرك التائهة في أعماق ذاتك، فهوفي قصيدته في ظلال الكعبة، لا يكاد يغادر ما يجتاح كيان الوافد إليها من مشاعر قدسية إلا وقد رسمه بالكلمة الموحية:

سـعيد أنا في ظلال الحرم فلا تسـألوني لمـاذا ولم

أحس بجسـمي فوق الأثير وقد شف بل خف حتى انعدم

فلا عجب أن يمـوت البيان ويحيا بوصـف رؤاي القلم

ويفسر بشعره المتدفق، تلك الدهشة التي تعجز اللسن الفصيح، عن البيان لروعة القرآن الكريم وبلاغته المعجزة، فينتقل بك بلطف من خلال حوار أسري عابر، بين غسان وأبيه الشاعر إلى هذا الفضاء الروحي:

ســـــبى قبلي العشاق جيد ومقلةٌ	**فجُنوا ومـــــا ليموا فكيف ملاميا**
وما أنا بالباغي على الحب متعةً	**وأخجل أن يلقانــــــي الله لاهيا**
ولكن في حبي لهيبــــــاً مطهراً	**وجدت به من كل داء شـــــفائيا**
لئن هام غيـــــري بالجمال فإنما	**بمصدر أســــــرار الجمال هياميا**

ولا يخالجني شك في انتقال هذه الرؤية الإبداعية للإنسان والكون والحياة ،إلى شعراء لم يلتحقوا بركب الحركة الإسلامية؛ بل ربما لم يكونوا مع الحركة الإسلامية على وفاق، منهم الأديب الكبير محمود شاكر، في رائعته «القوس العذراء»، والتي يباهي بها عصره الأعصر، كما أنها نبض حي لأمشاج منهجه الأصيل، وأثارة من حديث الاتقان الإسلامي «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

وطال الزمـان فحـنت به إلى الحـج داعيةٌ تستهـل

آذان من الله كيف الفرار وأين الفرار وكيف المهل

تردده البيد بين الفجاج وفوق الجبال وعند السبـل

أصاخ لها وأصاخـت له ولبـتـه فامتـثـلت وامتـثـل

وطارا معاً كظـماء القطـا إلى مورد زاخر محـتـفل

- «د. غازي القصيبي»: هوالأديب... أديب بكل ما تحمل هذه الكلمة من

معنى، حمل القلم على كاهله باكرا وشاخ، وظل قلمه يافعاً، شاعر روائي قاصٌ كاتب متفنن، بشر بالحداثة لكنه ظل مشدوداً إلى التراث ونماذجه، يسكنه الأشج خامس الراشدين عمر بن عبدالعزيز، فترف روحه الطاهرة في فضائه الإبداعي، ليقول القصيبي على لسان الأشج ما لم يقله الأشج حين ودع الحياة:

لا تأخذوا بدمي الغلام

هوما سقاني السم

لكي كرعت السم حين تركتكم

تتدافعون إلي

حين بسطت كفي

حين قلتم

أنت يا عمر الإمام

كادت تمور الأرض

كدت أغور

من جلب الخلافة لي

وكدت أموت في موج الزحام

أوصى سليمان

فكيف تفر من ربق الوصية

كيف تهجر أمة الإسلام

كيف ...

وضجت الدنيا .. أمير المؤمنين

لا تأخذوا بدمي الغلام

هو ما سقاني السم

بل فتح المنافذ للسجين

رباه ما أشهى الختام

الآن اغمض ناظريَّ

ولا أفكر في العفاة

وفي الولاة

وفي القضاة

وفي الوشاة

وفي المظالم والظلام

الآن أبصر

كيف يومض في الأسى

فرح اليقين

ثانياً: في الرواية والقصة والمسرحية:

- عميد الرواية الإسلامية في الأدب العربي «د. نجيب الكيلاني»: وقد كتب أكثر من أربعين رواية ومسرحية، وله رواية مستقلة في الحديث عن معاناة دعاة التيار الإسلامي في المعتقلات والسجون، أسماها «رحلة إلى الله قصة الإخوان المسلمين الدامية».

والتي هي مخاض تجربة مريرة، حيث حكم عليه بالسجن عشر سنوات في قضايا الإخوان المسلمين.

وجد في السيرة العطرة والتاريخ الإسلامي معيناً إبداعيًّا لا ينضب، وفضاء مسرحيًّا ثريًا لم يألفه الخيال الأدبي بعد، فهومثلاً يعالج مفهوم الحرية برؤية معاصرة، من خلال الحديث النفسي المكتم في مطاوي ذات وحشي بن حرب، اخترق بعبقرية أزمَّة المكان والزمان، واستل من وحشي هذه الأسرار المكتومة، كل ذلك في بضع صفحات من قصة الحرية الموهومة، يقول على لسانه بعد أن قتل حمزة ﵁ التماساً للحرية الموهومة: أوتظن أن حربتك الملوثة بالدم قد صنعت لك حريتك، ليس هذا هوالطريق يا وحشي... لن يكون الحقد طريقاً إلى الحرية[1].

- مهندس الرواية الإسلامية المحترف الأديب «علي أحمد باكثير»: ولأنه منذ نشأته كان ذا اتجاه إسلامي محافظ؛ فقد احتضنته مجلات الحركة الإسلامية وصحفها، إذ نشرت آثاره مجلتا الدعوة والإخوان المسلمين، صدر في رواياته ومسرحياته عن تصور إسلامي أصيل، وشعور بالمسئولية الفنية، إذ أنه يمتلك أدوات الإبداع الأدبي والثقافة الواسعة، وهذا يظهر في مجموع رواياته وتحديدًا في روايته «واإسلاماه».

ولأنه ظل معبرًا عن القيم الإنسانية النبيلة، مخلصاً للحقيقة المنشودة، تجد أدبه يرتاد آفاق المعرفة، اتحد معينه الإسلامي وتشعب في مجاريه وغدرانه، فهويمني مصري إندونيسي.

---

(١) رجال الله، نجيب الكيلاني، ص ٨١.

- الأديب والمفكر والروائي العراقي «عماد الدين خليل»: وهوكاتب مؤرخ له دراسات رصينة في التاريخ الإسلامي، كما أنه شاعر وروائي ومسرحي، له رواية «الإعصار والمئذنة» صور من خلالها ما مر بالعراق من أحداث في زمن عبد الكريم قاسم، ورواية «السيف والكلمة» وهي رواية تكشف عن عمق ثقافته التاريخية والأدبية، كما تكشف عن حسه المرهف بالمسؤولية التاريخية، والتي جعلته يستدعي أحداث الغزوالمغولي لبغداد؛ لكن يتسرب في حنايا إبداعه حديث عن احتلال العراق عام ٢٠٠٣م.

- الروائي العراقي «داود سليمان العبيدي»: من خلال روايته «جبل التوبة» التي تسافر بك إلى عالم روحاني غريب مدهش، إنها الامتداد الإبداعي للأدب النبوي الشريف، وهي تحكي قصة انتصار الحق على الباطل بعد صراع مرير، وروايته الأخرى: «قصة حديث الشيخ» وهي قصة الصراع الأزلي بين الواقع والواجب، الذي تدور رحاه في النفس المؤمنة، وهي تعكس الصراع النفسي الذي تنطوي عليه زمرة من نفوس أبناء التيار الإسلامي، والتي ترزح تحت مغريات الحياة وضغوط الواقع الفاتن.

ثالثاً: في السيرة الذاتية والمذكرات:

في حلبة هذا الفن الحديث تباري جلةٌ من فرسان الحركة الإسلامية، وظلت كتاباتهم ملفات خطيرة في أغلبها، حفظت فيها تاريخها المليء بالأفكار والأحداث والتضحيات والمراجعات والنقد الذاتي، ومن هذه المذكرات المهمة:

- الأديب «د. نجيب الكيلاني»: من خلال مذكراته والتي تقع في جزئين في بعض طبعاتها، وهي ثرية في تاريخ الحراك الأدبي للحركة الإسلامية، فاز

بجائزة الدولة التقديرية عن روايته الطريق الطويل وهوسجين بين قضبان السجن، كان السحار الكاتب يتحدث بفخر واعتزاز عن توليه طباعتها قبل وزارة الثقافة، في مذكراته صفحة مهمة تفردت بها؛ حيث تحدثت عن التحاق الكيلاني بندوة الحرافيش والتي كان يديرها نجيب محفوظ وكيف كانت عميقة الأثر في نفس الكيلاني.

صفحة مطوية أخرى لم تطلعنا عليها إلا مذكراته وهولقاؤه بسيد قطب حيث زاره في السجن، وفيه مراجعات سيد قطب في مفهوم الأدب الإسلامي.

لطالما كان يُسأل في ندواته عن أقرانه من كتاب الرواية، وكان يتحرج من إصدار الأحكام على أحد، فقد كان يسأل عن الكاتب إحسان عبدالقدوس، والذي كان يسرف في الكتابة حول العشق والهيام ودموع الوله والتمرد على الأعراف، فكان يجيب كما ذكر في مذكراته: إن كل فن أوأدب يرقى بعقولكم وأذواقكم وأخلاقكم هوالمناسب لكم، وكل ما يحرضكم على الفساد والرذيلة والانحراف، فهوفن أوأدب فاسد يجب أن تتجنبوه، وأنتم أدرى بأنفسكم ولن تخدعوها[1].

في آخر مذكراته تحدث عن لحظة فراقه لأهله أمه أبيه وزوجته وأبنائه، والتي اختزلت مشوار معاناته بل إنها أربت عليها.

يقول: حانت لحظة الوداع، وكانت أمي تبكي بحرارة وتتشبث بي. وأبي يهدئ من انفعالها ويقول إن هذه ليست المرة الأولى التي اغترب فيها، وأن حياتي كلها غربة، ومع ذلك فقد كانت عيناه هوالآخر مبللتين بالدموع، وأمي تقول له إن هذه هي المرة الثانية التي تذهب فيها بلاد أخرى خارج القطر المصري، وكانت

---

(١) مذكرات د. نجيب الكيلاني، ص٣٣٥.

الأولى رحلة لمدة شهر، أما هذه فقد تطول الغيبة إلى سنتين، ولا تكف عن القول: «منه لله اللي كان منه السبب».

احتضنتني بقوة وهي تقول: (الله معك..).

ثم أردفت بدعائها المأثور الذي كانت تقوله جدتي دائما:

«يجعل في وشّك جوهرة، وفي حنكك سكرة، ويحبب فيك خلقه... ويردك لنا سالماً..».

وأبي يقف صامتا محتقن العينين.

وقبلت يد أمي.

ثم قبلت يد أبي.

وانتزعت نفسي انتزاعاً، وهرولت خارجاً، وبعد أن ركبت السيارة تنفست الصعداء.

كان الوداع مهمة شاقة..

ولم أكن أعرف متى سأعود.

ويتردد في أرجاء نفسي تلك الأشعار التي كتبتها ذات يوم:

قد طال ترحالي فهل لمسافر يوماً مآبْ؟

أترى أعود لقريتي وتعود أحلام الشبابْ؟

وأرى أبي والحاملين فئوسهم عبر الشعابْ؟

العائدين من الحقول يلفهم ليل السرابْ؟

الكــــــــــــــادحــــــــين

– المفكر الإسلامي «مالك بن نبي» من خلال مذكراته: «مذكرات شاهد للقرن»: مذكرات فريدة تكشف لنا مكونات فكره والهواجس الحضارية التي ظل يحملها طيلة حياته، شاهد على مدى التخلف في المجتمع العربي، وفيها أيضا وجهة نظر غير تبجيلية للحضارة الغربية، تستند إلى رؤية واقعية وقراءة واعية من وحي شهادته للقرن.

ستستغرقك الحالة الجزائرية التي حملتها ذات مالك بن نبي، والتي كانت محط اهتمام العالم العربي بأسره، تفاصيل مدهشة تنتظم في أسلوب القصص الفريد والحوارات المتتابعة، تنتقل بك في عالم مالك وأطوار حياته.

في غضون مذكراته تستوقفك هذه الفقرة التي كتبها وكأنها جملة اعتراضية، يعلل كتابته للمذكرات بما تحمل من تفاصيل يقول: وربما يعجب هنا أولئك المثقفون الذين أصبحوا لا يدركون لغة الشعب الجزائري المسلم، أنني لا أكتب هذه المذكرات من أجلهم، ولكن للشعب عندما يستطيع قراءة تاريخه الصحيح، أي عندما تنقضي تلك الخرافات التي تعرض أحياناً أفلاماً كاذبة، والتي سيكون مصيرها في صندوق المهملات مع مخلفات العهد الاستعماري[1].

ولفرادة كتابته كان يفتش عن أي كتابة عربية تشاطره الهم، وتبعث في الشعوب العربية الهمة، لكي يترجمها إلى اللغة الفرنسية التي كادت أن تنسخ العربية في الجزائر؛ بسبب الاستعمار الباغي، حتى وصل إليه في منتصف ١٩٣٩م كتاب اسمه «الصراع»، جاءه هدية من صاحب سعودي لاجئ إلى القاهرة لم يصرح باسمه، قدم له بمقدمة تكشف ألاعيب اليهود، تتناول كما يقول ببراعة نادرة دور القيم اليهودية في صياغة العالم العصري، وقد رغب له أحد أصدقائه ترجمتها إلى

(١) مذكرات شاهد للقرب، مالك بن نبي، ص ٢٨٨.

الفرنسية أضاف مقدمة لها لتنشر مستقلة، فعكف على هذا العمل، قال في انطباعه عنها؛ أنه يخال أن كاتبها نيتشه للغتها الثائرة ومرماها الطموح وروحها المتمردة.

وأعتقد أنه كتاب «الصراع بين الإسلام والوثنية» لـ«عبدالله القصيبي»، وذلك لعدة مؤشرات:

١ – أن الكاتب سعودي واسم كتابه الصراع.

٢ – أنه لجأ إلى مصر في هذه الأثناء.

٣ – أنه قد كتب فعلاً في مقدمة الجزء الثاني من كتابه الصراع المقدمة التي نالت إعجاب مالك بن نبي، والتي عرضت باليهود والاحتلال الفلسطيني، والذي كان تحت اسم الانتداب.

٤ – أن الكتاب صدر في عام ١٣٥٧هـ الموافق ١٩٣٨م، ومذكرات مالك بن نبي قد كتبت في عام ١٩٦٩م، لكن الأحداث التي تناولها انتهت إلى سبتمبر ١٩٣٩م.

ولا أدري إن كان يقصد الكاتب مالك أن صاحب الصراع كان لاجئاً حينها، أم أنه لجأ إلى القاهرة بعد ذلك؛ حيث إنه كتب مذكراته عن هذه الفترة بعد عقود من الزمن.

– المفكر الإسلامي الكبير «سيد قطب»: كاتب شاعر له ديوان وراوله رواية «أشواك»، وناقد له رؤية نقدية واعية وجريئة، متمرد على الواقع الأدبي لمجتمعه، وخصم عنيد في معاركه الأدبية، له مذكرات «طفل من القرية» يؤرخ فيها لنشأته وجذور تشكيله الفكري، امتازت بالصدق، أهداها إلى أستاذه «طه حسين»، وهي وإن كانت قد كتبها قبل التحاقه بالتيار الإسلامي، إلّا أنها تحمل في طياتها روحًا

متمردة على واقع متخلف مزر.

- المفكر والزعيم الإسلامي «حسن البنا»: من خلال مذكراته «مذكرات الدعوة والداعية»، وتمتاز هذه المذكرات عن سواها أنها أول مذكرات لداعية إسلامي حركي قائد لجماعة، كان لها نشاطها الواضح في العالم الإسلامي بأسره، بالإضافة إلى أنها قد راعت المعايير الفنية والأدبية لكتابة «فن السير الذاتية والمذكرات»، وهي تعتبر أهم المراجع قاطبة في التعرف على سيرته، ويبدوأنه كتبها مرتين، في المرة الأولى عثرت عليها النيابة العامة، وقد لقي من المحقق بسببها العنت والإرهاق في غير جدوى ولا طائل إلّا تحميل الألفاظ غير ما تحمل -على حد تعبيره-، وقد ضاعت المذكرات بعد ذلك، فعز عليه ضياعها فرغب في كتابتها من جديد، فقد قال: وبالرغم من هذا الضياع فإنني ما زلت أكر هذه الوقائع كأنها بنت الساعة[1].

فكتبها حتى لا تأتي على التذكر عوادي الزمن في عام ١٩٤٣م.

وهي من أهم مذكرات الحركة الإسلامية، تشتمل على تفاصيل مهمة لمشروع قيام أهم الحركات الإسلامية، تكتشف فيها التكوين الفريد لشخصية «حسن البنا»، والروافد الثقافية التي تحلى بها، فهويؤكد هذا التنوع إذ يقول: «وهكذا كانت حياتي في القاهرة خليطاً عجيباً من الحضرة في منزل الشيخ، إلى المكتبة السلفية؛ حيث السيد محب الدين، إلى دار المنار والسيد رشيد، إلى منزل الشيخ الدجوي، ثم منزل فريد بك وجدي، ودار الكتب أحياناً، ومسجد شيخون أحياناً أخرى».

(١) مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٣.

ثم يحدثك عن الدعوة في المقاهي في صورتها العفوية، والتي انتقلت به إلى العمل المنظم، وإنشاء الجمعيات، والانتشار في الأقاليم، وإنشاء الصحافة الإسلامية تتخللها أسماء مشهورة وأخرى مغمورة، ومؤتمرات ورسائل وأنشطة، ومواقف إنسانية وتحديات[١].

- «زينب الغزالي» من خلال مذكراتها: «أيام من حياتي»، وهي مذكرات تحمل في طياتها تفاصيل رهيبة للحقبة التي اعتقلت فيها الكاتبة، اشتملت على مادة ثرية في أدب المعتقلات والسجون، قصة مريرة مليئة بالتفاصيل الدامية ملهمة للإبداع، وكأنك تقرأ قصة من وحي الخيال، كما أنها تحمل قيمة تاريخية مهمة توثق لمرحلة خطيرة من تاريخ الصحوة الإسلامية، تتطلع أجهزة الأمن في العالم العربي لمحوها من الوجود، لولا هذه الأعمال الأدبية التاريخية لطوتها الأيام وصارت أثراً دارسا بعد عين.

- العلامة «أبوالحسن علي الحسني الندوي» من خلال مذكراته ورحلاته. فمذكراته في مسيرة الحياة ثرية بالأعلام واللقاءات والأحداث والانطباعات، فقد واكبت حياته الغاء الخلافة الإسلامية والتحولات الكبرى في العالم الإسلامي من الاستعمار وحركات التحرر، بالإضافة إلى تسجيل للأحداث التي تجري في الأمة الهندية من خلال انطباعات عالم أديب هندي.

كما أن العديد من كتاباته كانت حافظة للأدب الإسلامي الحديث، فهويذكر في مذكراته لحظات الإعجاب بشعر «محمد إقبال» وفلسفته، وكيف انتقلت بعد ذلك الى مشروع لتعريف شعر إقبال ونقله إلى العالم العربي، يقول: فقد وجدت فيه مع سموالأفكار جمال النغمة وحلاوة الجرس.... وتأثرت به عقليتي وتفكيري

(١) مذكرات الدعوة والداعية، ص ٧٦.

وقلبي تأثرًا لا أعرفه -في حدود الأدب والشعر والفكر الإسلامي القوي- بأي شخصية معاصرة أخرى[١].

تزامن هذا التأثير مع لقائه به في أيامه الأخيرة.

وهويؤرخ في مذكراته لزمرة من كتبه ويذكر آثارها، وكان منها كتابه الأثير «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، والذي قدم له المفكر الأديب «سيد قطب» بمقدمة ضافية، والذي كانت فيه سلوى للحركة الإسلامية آنئـــذ بعد عدة إجراءات تعسفية جرت في حقها يقول: «ولما سافرت إلى مصر عام ١٩٥١م، كان هذا الكتاب قد شق طريقه إلى الأوساط الدينية والعلمية، وكان يكفي في تعريفي أن يقال مؤلف «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، وقد كانت حركة الإخوان المسلمين، قد حُلت ومُنِعت من النشاط، وكان الشيخ «حسن البنا» -رحمه الله تعالى- قد استشهد، فكانت قلوب الإخوان مجروحة أليمة، فجاء هذا الكتاب مسلياً لهم ومعزياً»[٢].

في عام ١٩٥١م زار المعرة يقول: دخلنا في معرة «النعمان» وأنا أتمثل بأبيات أبي العلاء نفسه، وأقول هذه معرة النعمان التي يقول فيها ابنها البار:

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماني إليه الدهـــــر منذ ليالي

فهل فيك مـــــن ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالي[٣]

اشتملت مذكراته على تاريخ لأحداث وتسجيل لانطباعات إنسان واعٍ يعرف ما يدون، زار عدة دول في العالم العربي، والتقى بزعماء ومفكرين وكان له

(١) في مسيرة الحياة، أبوالحسن الندوي، ص١٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٧٦.

(٣) مذكرات سائح، الندوي، ص ٢٩٤.

مع بعضهم حوارات خاصة ذكر تفاصيل طائفة منها، ومنها حديثه مع المفكر سيد قطب وحواره حول تحوله إلى الأدب الإسلامي[1].

- الشيخ الأديب «علي الطنطاوي» من خلال مذكراته، والتي آثر تسميتها بـ«ذكريات علي الطنطاوي»، لأن المذكرات حسب قوله تكون متسلسلة مرتبة، أما هو فقد كتب ذكريات تفتقر إلى التسلسل والترتيب والتوثيق، وهذا في تصوري تواضع منه، إذ أن ذكرياته ثرية بالمعلومات والتجارب والخبرات والأعلام والمواقف، وهي رافد تاريخي مهم للتاريخ المعاصر وشخصيات الحركة الإسلامية كمحب الدين الخطيب، ورشيد رضا وحسن البنا... وغيرهم، كما أنها أثر أدبي نفيس يقع في ثمانية مجلدات كتب بأسلوب أدبي فذ، اشتملت على نظرات نقدية ومختارات شعرية عذاب، يجمع بين أوصالها أسلوب قصصي جميل.

- العلامة «يوسف القرضاوي»: وفي عهد قريب جاء يوسف القرضاوي ليسهم في هذا الفن بنصيب وفير، وليتيح من خلال مذكراته (ابن القرية والكتاب) لجمهور المتلقين مادة ثرية من مذكراته ومسيرة حياته، انتظمت في مذكراته بلدان وبيئات وأعلام ومواقف وانطباعات وكتب ومناقشات، وتمتاز في تصوري بعدة ميزات:

١- أنها ثرية تفصيلية تقع في ثلاث مجلدات.

٢- أن كاتبها أديب مشارك في الكتابة الإبداعية فقد كتب في المسرح والشعر، كما أنه يمتاز بمتانة اللغة وجمال الأسلوب، بالإضافة إلى ما يتخللها من

---

(١) ينظر؛ مذكرات سائح، ص ١٠٩.

القصائد والأشعار.

٣- أنها صادقة فكاتبها لم يتزلف للحكام، ولا للحركات الإسلامية التي كان ينتمي إليها وينتصر لها، لكن عدم انتمائه لأي منها وفر له هامشاً واسعا من الحرية في ذكر سلبياتها ونقد بعض زعمائها.

٤- أن كاتبها عالم متعدد المعارف واسع الثقافة، فهويستطرد مع اللغة والنحو، ومع الجغرافيا حيناً آخر، ومع الفقه والعقيدة والتاريخ أحياناً أخرى، تتماهى في أسلوبه العذب مع مذكراته وسيرته الذاتية.

- مذكرات المفكر «أنور الجندي» شهادة العصر والتاريخ: مذكرات ثرية لرجل موسوعي، وكاتب محترف يمتلك قلماً سيالاً ومعرفة واسعة، أرخ لحركة اليقظة وترجم لأعلام عصره، كتب عن الصحافة العربية والسياسة الإسلامية، كشف مخططات الاستعمار والصهيونية، وحركة الاستشراق والفكر الغربي، وفضح ألاعيب المروجين للفكر الغربي من كتاب العرب؛ كطه حسين وسلامة موسى، يضاف إلى ذلك أنه من أهم الكتاب والمؤرخين للأدب العربي المعاصر وأعلامه، بحجم هذه الجهود الكبيرة، جاءت مذكراته لتختزلها في إشارات سريعة، تلملم شتات هذه الأوراق المضيئة لتنتظم في تاريخ هذا المفكر.

في سنينه الأولى يبحث عن المنهج، فيتخبط متدلها بين الطرق الصوفية والاتصال في الأحزاب والانغماس في الثقافة المسمومة، ثم درس التاريخ لكن على غير هدى من غاية محددة، حتى يلتقي بـ«حسن البنا»، فيصف لقاءه الأول به وصفاً دقيقاً، رجل هادئ يتكلم بلغة فصيحة بليغة سهلة الوصول إلى كل القلوب، ترضي المثقفين ولا تعلوعلى أفهام المتوسطين والعامة، لا يرتفع صوته ولا

يضرب بيده، ولكنه مع ذلك يأخذ بالألباب ويملأ النفس تأثيراً، ويثير في أعماقها إحساساً بالأمل والحياة، ويفتح أمامها باب السعادة والرجاء في الاتصال بالله تبارك وتعالى[١].

يجري في ثنايا المذكرات ماء الصدق النمير، يتخللها نقد الذات وعتاب النفس ودعوة التصحيح، ينأى بنفسه عن دعوى البطولة وتمجيد الذات، والذي اعتاد عليه بعض الزعماء في مذكراتهم، يقول: «وربما تكشفت لي أخطاء جريت وراءها ثمة، ثم عدت لأصححها، وهي أخطاء جاءت نتيجة نقص العلم بأبعاد الأمور».

بالإضافة إلى:

- الأديب «محمد المجذوب»، في مذكراته: «مشاهداتي في الهند».

- والمفكر السياسي «علال الفاسي»، من خلال مذكراته (في منفى الغابون)، والتي اشتملت على شعر عذب يجسد معاناته في المنفى.

- الأديب الطبيب «د. حسان حتحوت» في مذكراته «فلسطين النكبة الأولى»، وهي مذكراته في البعثة الطبية الى فلسطين عام ٤٨م، شاهد على مأساة الاحتلال.

- الإعلامي الأديب «أحمد رائف» من خلال مذكراته الدامية «البوابة السوداء»، وهي صفحات من تاريخ الإخوان المسلمين، كما أنها يوميات للتاريخ السري للمعتقلات، وهي وثيقة خطيرة تدين الاستبداد الذي استخف بالإنسان، كتبت كلماتها بدم كاتبها ليقدم تجربته للتاريخ، لتكون رافدا للأحرار ورصيداً للحرية.

---

(١) شهادة العصر، الجندي، ٥٤.

رابعاً: في المقالات الأدبية والنقدية:

- رافع راية الأدب الإسلامي بقيمه وتصوراته في الصحافة العربية الأديب الكبير «مصطفى صادق الرافعي»: من خلال مقالاته في أشهر المجلات الأدبية في زمنه، والتي جمعها في كتابه الفريد «من وحي قلم»، ومقالاته لازالت معينا لا ينضب للتصور الإسلامي في الادب العربي، تصدى لكثير من الهجمات التي شنها أدباء عصره ومفكروه على القرآن الكريم وقيم الإسلام.

- الأستاذ الأديب «سيد قطب» من خلال مقالاته في طليعة المجلات الأدبية «الرسالة»، ثم في المقتطف وغيرها من مجلات العصر.

يضاف إلى هذه الفنون والأعمال الإبداعية؛ الكثير من الإسهام في مختلف فنون الأدب، والكثير من المحاولات الإبداعية من جمهرة واسعة من أدباء وأديبات التيار الإسلامي، وما ذكرته ما هوإلّا غيض من فيض هذا الإسهام والعطاء.

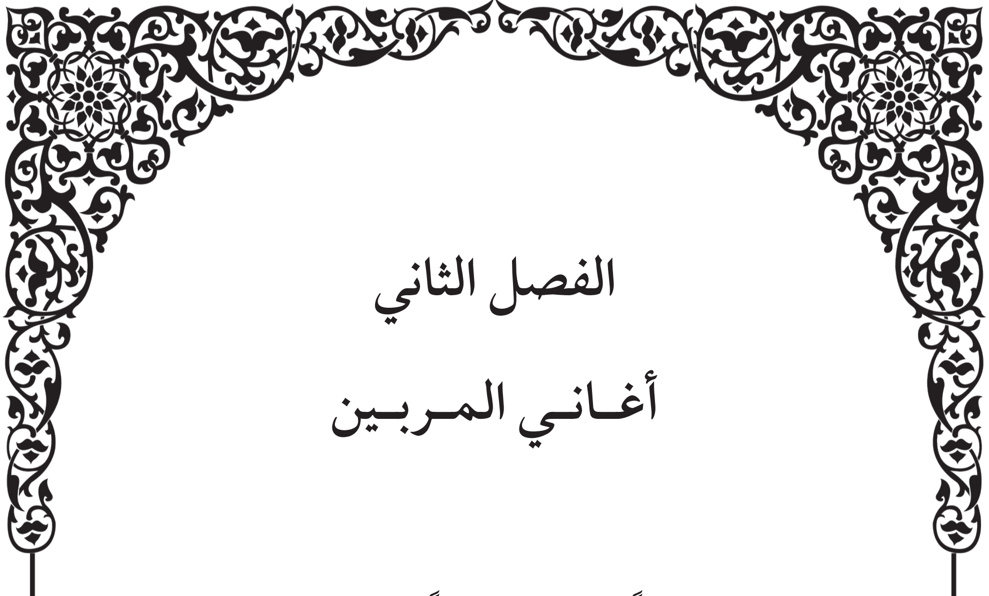
وفي الختام:

وفي تصوري أنه لا يزال الأدب الإسلامي على علاته هوالأكثر قرباً إلى جماهير المتلقين، لأنه حي، يتطلع إلى الخلاص بأحرف الأمل، سخي يضحي أصحابه أحياناً بحياتهم في سبيل كلماتهم، فتعيش كلماتهم بأرواحهم، كما قال الأديب «سيد قطب»: «إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع، حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة».

أما تيارات التجديد والحداثة، فعلى الرغم من سابقتها في التجديد والإبداع ومواكبتها الآداب الغربية، إلا أنها جاءت مصحوبة بمضمون قلق، فاقد للهوية مغال في الابداع، قفز به على قيم المجتمع العربي وثوابته، تشبع بالرمز المعقد

والغموض الجامح، يلهج بالشكوى، ويدمن النوح، ويستمرئ البكاء، ويطوف في الحانات ويمجد العهر، تنتفض فيه روح اليأس، وترتعش أحرفه رعشة الموت، قد انشغل أصحابه لكن بلا مهمة، وملؤا الأفئدة والأسماع والصحف والندوات لكن بلا قضية.

وليس هذا مجال المقارنة بين التيارين، لأنه مجال يتطلب بحثاً مستفيضاً ومزيدا من التحري للدقة والموضوعية، ولكن غاية ما كنت أتطلع إليه؛ هوتسليط دائرة الضوء على أدب الحركة الإسلامية، وعطائه في فنون الأدب المختلفة.



الفصل الثاني

أغـانـي المـربـين

- الشاعر مربياً ... الشعر مربياً.
- تسامح ابن الرومي.
- إن الهدايا على مقدار مهديها.
- ذكرى طالب نجيب.
- مسألة من عاشق !.
- الصدِّيق يشكر صنيع الأنصار.
- أدب الاختلاف نظرة وجدانية.

الفصل الثاني: أغاني المربين

• الشاعر مربياً ... الشعر مربياً :

أقف بين حين وآخر على أبيات أوقصائد محملة بتجربة وجدانية قد امتزجت بمعرفة تربوية عميقة، تأخذك ببلاغتها الآسرة، وبألفاظها الغناء، لا تكاد تند عنها جزئية من الفكرة ولا يستعصي عليها معنى من معاني الفكر الإنساني، للغتها المحكمة، ولانسيابها في أغوار النفس البشرية.

نعم، بين حين وآخر أقف على ما رسمت، اكتشف من دفائن التراث ودفاتر المبدعين ما يصلح أن يكون قولاً تربوياً شديد الصلة بتاريخ الفكر البشري، فهويملك فيه أعلى الأسانيد، إذ تجمعت فيه لغة شاعره ومعرفة عميقة وتجربة طويلة، محصه تعاقب الأحداث والمحن، ومخضه تنوع البيئات والأزمان، حتى ساقته أمواج الحقب على متون الدفاتر والكتب، يلهج به ربان السفين، يواسي به غربة المبحرين، فيرفع عقيرته بين صخب الأمواج وعتوالرياح وشدة الظلام.

خفض عليك من الهموم فإنما ... يحظى براحـــة دهره من خفضا

ما عوض الصبــــر امرؤ إلاَّ رأى ... ما فاته دون الـــذي قد عوضا

إنها أغاني المربين، حين يغدو الشاعر مربياً يرسل المواعظ والدروس أغانٍ مطربة، وأهازيج تخفف آلام الحياة، فهو يشرف على أيفاعها، ويعتلي هضابها ليستجلي المستقبل بالحكمة السائرة:

وما أشـــرف الأيفاع إلاَّ صبابة ... ولا أنشد الأشـــعار إلاَّ تداويا

قد يكون هذا الشاعر الذي تتغنى الأجيال المتعاقبة بأهازيجه، شاعراً قد وعى الحياة منذ نشأته الإبداعية، فهو يتأبط معه دفتر الأيام ليملي على الوجود حكمه، كشاعر السلم والحكمة زهير بن أبي سلمى إذ يقول:

دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضـــــل الناطقين مفاصله

وذي خطل في القول يحسب أنه مصيب فما يلمـــــم به فهوقائله

عبأتُ له حلمـــــاً وأكرمتُ غيره وأعرضت عنـــــه وهوباد مقاتله

أو كشعراء كثر، تكاملت ملكاتهم التربوية منذ نعومة أظفارهم، وتفتحت تجاربهم الإبداعية.

وربما بدا الشاعر في بعض مراحل حياته لاهياً عابثاً خليعاً غائصاً في لذائذه وشهواته، لكنه لحظة الصحوة يستل من جعبة تجاربه ما يقطع به ترهات الماضي، وينطق القصيد الذي ينفذ من بني ركام العهر والعبث، فيظل حياً شاهداً على الصحوة عصياً على الموت والضياع.

فإذا به يصير كأنس بن زنيم ﷺ، الذي قال في صحوته قبل أن يسلم أمدح بيت قالته العرب:

وما حملت من ناقة فوق ظهرها أبـــــرَّ وأوفى ذمـــــة من محمد

أوكالفرزدق حين تاب من السب والهجاء، بعد أن لاكته التجارب والمعارك بين فكيها، فقال قوله الحاسم:

أَطَعْتُكَ يا إبلِيسُ سَـــــبْعِينَ حِجّةً فَلَمّا انْتَهَى شَـــــيْبي، وَتمّ تَمامي

فَرَرْتُ إلى رَبّـــــي، وَأيْقَنْتُ أنّني مُلاقٍ لأيّامِ المَنُـــــونِ حِمَامي

وَلَمّا دَنا رَأسُ الَّتي كُنتُ خائِفاً   وَكُنتُ أَرى فيها لِقـــاءَ لِزامِ
حَلَفتُ عَلى نَفســـي لأَجتَهِدَنَّها   عَلى حالِها مِن صِحَّةٍ وَسَـــقامِ

أغاني المربين، إنها قبس من نور اليقظة، قالها الخبير وقد أجاد القول والتعبير، فهي غنية المتربي وأغنية المربي، يغدويراع الشاعر فيها مبضع الطبيب الحاذق، الذي يأسوالجراح ويعالج أمراض النفوس ويستل سخائم الصدور، وكما قالوا قديما:

والقول ينفذ ما لا تنفذ الإبر

بل يغدو يراعه يراعاً مثقباً، يرسل الأهازيج الغناء التي تواسي القلب المكلوم، يحفظ بها النغم الذي استودعته الأيام، فهوخبير في أسرار النفس يملكها بنغمه الأصيل:

ويملك سمعيه اليراعُ المثقَّبُ

قد يولد الشاعر عبقرياً، يحيل أحداث الحياة إلى دروس وعبر لا تبلى مهما تعاقب الليل والنهار، تستحيل ببلاغته وشاعريته إلى إبداع أدبي، لا ينقضي منه العجب، إنها تجربة المتنبي وإخوانه:

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت   مني بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة عـــن حلم بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

لا أكتمكم خبراً إن قلت إن هذين البيتين قد حفزاني، بل ألهماني للنظر في شاعرية التربية في شعرنا العربي، فربضت أترصد شوارد الفكر من بين الدفائن والدفاتر والكتب، علِّي أقنص أغنية شاعر يعفوعن مسيء، أوينبه غافلاً أويؤدب

طالب حكمة، أوآخر يعترف بفضل أهل الفضل أويشكر المحسن، وهكذا تفتحت لي آفاق ديوان التربية، تعددت ألحان قصائده؛ لكن نظمها شرف المقصد ونبل الغاية في سلك القيم.

• تسامح ابن الرومي:

يخطئ أحد أصدقاء ابن الرومي في حقه، إذ يقول كلاماً يسوؤه وينتقص منه، فيعلم الصديق بعد حين أن إساءته قد بلغت إلى مسامع صديقه ابن الرومي، فيتهرب من عتابه ولومه، ترى كيف تصرف ابن الرومي مع صديقه؟ وكيف قابل هذه الإساءة؟ إنها تجربة من تجارب الحياة، التي قل أن يسلم منها شخص، كما إنه ندر أن نجد من نجح في هذه التجربة، والأندر من ذلك من ينجح فيها ويحسن التعبير عنها، فإذا به يبدع أغنية من أغاني التربية:

أتاني مقالٌ مـــن أخٍ فاغتفرتُهُ ... وإن كان فيما دونَهُ وجهُ مَعْتَبِ

وذكَّرتُ نفسي منه عند امتعاضها ... محاسنَ تعفوالذنبَ عن كل مُذنبِ

ومثلي رأى الحُسنى بعينٍ جَليَّةٍ ... وأغضى عن العوراء غيرَ مُؤنِّبِ

فيا هارباً من سُـــخطنا مُتنصلاً ... هربتَ إلـــى أنجى مَفرٍّ ومَهربِ

فعذرُك مبســـوطٌ لدينا مُقدَّمٌ ... ووُدُّك مقبـــولٌ بأهلٍ ومرحبِ

ولوبَلَّغْتني عنـــك أذْني أقمتُها ... لديَّ مُقامَ الكاشـــح المُتكذّبِ

ولستُ بتقليب اللسان مُصارماً ... خليلي إذا مـــا القلبُ لم يتقلبِ

جزاك الله عنا كل خير يا ابن الرومي، ليس على إبداعك فقط ولكن لتسجيلك هذه اللحظة العزيزة، لحظة ضبط النفس والسيطرة على الذات وكبح

جماح الانفعال، في مشهد يتكرر فيه تفلت النفس من زمامها، حين يستبد بها عرام الانتقام، ضبط نفسه فانصاعت له جوارحه، تتبع معي ذلك، فالنفس التي امتعضت للإساءة روضها بتذكيرها بالمحاسن، وسيطر على العين فطوعها للإغضاء عن العورات، فاقتصر الإبصار منها لمواقع الإحسان، أما الأذن فإنها متهمة، شهادتها مجروحة في ديوان سلطانه قلب لا يتقلب.

- **إن الهدايا على مقدار مهديها:**

قد تهدي إنسانا هدية وتظل محتارًا بينك وبين نفسك، هل أعجبته، هل هي توازي مكانته أم لا، أوربما تهدى أنت هدية فتشعر أنها ليست من قدرك، هنا تأمل قول شاعر مرب أدرك هذه اللحظة:

جاءت سليمان يوم العرض هدهدة	**أهدت إليه جـــــرادا كان في فيها**
وأنشدت بلســــان الحال قائلة	**إن الهدايا علــــى مقدار مهديها**
لوكان يهدى إلى الإنسان قيمته	**لكان يهدى لك الدنيا وما فيها**

- **ذكرى طالب نجيب:**

اعتدنا أن يتذكر التلميذ أستاذه الذي علمه وأثر فيه، لكننا هنا نقف أمام بادرة نادرة، وهي تذكر المعلم المربي لتلميذه النجيب، وربما كان هذا التعهد والوفاء سبباً لمزيد من نجابة التلميذ.

هذا القاضي «علي بن محمد العنسي» كان يدرس الإمام «محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني»، صاحب سبل السلام، في مراحل الطلب النحووالمنطق والفقه، وفي يوم مر المعلم أمام المنزل الذي كان يسكنه تلميذه الصنعاني فأنشد:

وإذا مررت بسـوح داود وقد تليت عليك رسـائل ومسائل

عرج على تلك المنازل منشداً (لك يا منازل في القلوب مَنازل)

قد حلك البـدر الأمير فلم أقل (أقفرت أنت وهن منك أواهل)

كانت سن ابن الأمير الصنعاني حينذاك (١٧) عاماً، بينما كان المعلم القاضي عملاقاً بين علماء عصره.

• مسألة من عاشق !

سئل الإمام «أبوالخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني الحنبلي» مسألة وردته من عاشق، أسره جمال من يحبها قال فيها:

قل للإمام أبي الخطاب مسـألةٌ جاءت إليك وما يرجى سواك لها

ماذا على رجل رام الصلاة فمذ لاحت لناظره ذات الجمال لها

هنا استشعر الإمام مسئوليته الشرعية والتربوية، فكتب مجيباً عليها في الحال:

قُل للأديب الذي وافى بمسألةٍ سَرَّتْ فؤاديَ لمَّا أن أصَخْتُ لَها

إنَّ الـذي فَتنتهُ عَـنْ عبادته خَرِيدةٌ ذاتُ حُسْـن فانثنى ولها

إنْ تابَ ثمَّ قضَـى عنه عبادتَه فرَحمَةُ الله تغشى من عَصَى ولها

• الصدّيق ﵁ يشكر صنيع الأنصار:

قال النبي ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»، وشكر الناس على المعروف وحسن الصنيع فضيلة تحفظ الفضائل، فهوعلامة على الوفاء ونبيل الخصال، تمثل أبوبكر الصديق ﵁ هذا الخلق الشريف في أبهى صوره وتعابيره، حين استذكر

صنائع الأنصار وتضحياتهم، فلوكان الصديق شاعراً لقال فأحسن المدائح فيهم، لكنه انتخب من قول الشعراء ما يليق بفضل الأنصار وطيب خلالهم، قال ﵁: والله ما وجدت مثلاً لنا ولكم إلا ما قال طفيل الغنوي لبني جعفر بن كلاب:

جَزَى الله عنّا جعفراً حين أزلفت ... بنا نَعلنا فـــي الواطِئِينَ فزلّتِ

أبـــوا أنْ يَملّونا ولــــوأنّ أُمَّنا ... تُلاقِي الذي يَلقَـــون مِنَّا لملَّتِ

همُ خلطونــــا بالنفوس وألجأوا ... إلى حجـــرات أدفأت وأظلت

وأنت أيها الصدّيق الأكبر، جزاك الله عنا وعن أمة الإسلام خير الجزاء، فكل صدِّيق من بعدك فإلى صدقك ينتسب، على أنك قد أتعبت من بعدك، فكم مرت الأمة من بعدك بردّه ولا أبا بكر لها.

- **أدب الاختلاف «نظرة وجدانية»:**

يظل الاختلاف صفة بارزة من صفات الكائن البشري، أكسبته على مر الدهور والعصور تنوعاً وتطوراً وتنافساً وثقافة، ولوتأملنا في هذا الكون الفسيح، لوجدنا سر حركة الحياة فيه، يقوم على أمور من أبرزها الاختلاف والتباين، فاختلاف الليل والنهار، والسماء والأرض، والماء والنار، والخير والشر، واللغات والألوان والأجناس والصفات والخصائص، كلها كانت رافداً عظيماً للتطور البشري، ومصدراً ألهمه طبيعة التفاعل الحضاري مع التاريخ والواقع والحقائق والأشياء، وما سقطت أمة من الأمم أوحضارة من الحضارات، إلا عندما أخطأت تفسير طبيعة الاختلاف، فاعتبرته تنازعاً وشقاقاً، أولعنةً سماوية، أوعدواً لدوداً، أوشراً لا يمكن ردعه إلا بإلغاء الرأي المخالف، أوقمعه أوفرض مخالفه عليه.

وعطفاً على ما تقدم فإن البيت أوالأسرة، أوالمؤسسة أوالدولة، أوالأمة التي

لا تستطيع المضي قدماً في الحفاظ على كيانها أوفي تحقيق أهدافها، إلاَّ إذا وعت طبيعة هذا الكون وحتمية الاختلاف والتباين فيه، وأحسنت التعامل معه، فكان اختلافها تنوعاً وتعدداً في إطار الوحدة، وكان اختلافها في الجوارح والظواهر لا في القلوب والبواطن، في المقدمات والأسباب لا في النتائج ومألات الأمور، في النظر والرأي لا في المودة والخلق والتعامل.

فالاختلاف لا يفسد للود قضية، بل يكشف عن أوجه النقص في مفردات الفكر البشري، فيكمل بعضها الآخر ويُطلع الإنسان على مالم يره، فاختلاف الأنظار يفضي إلى اختلاف النظر والتأمل في المنظور إليه، فما أدركته قد لا يدركه غيري، وما أدركه غيري قد لا أدركه، وفهم هذه القضية على طبيعتها يؤدي غالباً إلى التؤدة والحكمة في التعامل مع القضايا الخلافية أومع المخالفين.

• **الإمام ابن دقيق العيد –رحمه الله–:**

يصدر عما تقدم الإمام ابن دقيق العيد –رحمه الله–، عندما وصف لنا مجلساً كريماً من مجالس العلم، كان محضنا للنقاشات العلمية دارت فيه رحى الجدال وعملت فيه معاول البحث وتعددت فيه أساليب النظر في العلوم، دون أن تجرح الصدور أوتخدش المودات أوتمس النوايا بسوء، فأنتجت هذه المجالس عقليات مبدعة، وقرائح منتجة، وفهوم خاضت غمار العلوم، يقول –رحمة الله عليه–:

ولله قومٌ كلما جئـــــت زائراً ... وجدتُ نفوساً كلها مُلئت حلما

إذا اجتمعوا جاؤوا بكل طريفةٍ ... ويزدادُ بعض القوم من بعضهم علما

تساقوا كؤوس العلم في روضة التقى ... فكلهم من ذلـــــك الريِّ لا يظما

نفوس على لفظ الجدال قد انطوت فنبصرها حرباً ونعقلها ســـلماً

وما ذاك من جهل بهم غير إنهم لهم أسهم شتى تنكبت المرمى

أولئك مثل الطيب كلٌّ له شذى ومجموعه أذكى أريجاً إذا شُما

• الحسد الجميل:

ليس في الحسد ما هو جميل -بطبيعة الحال-، أعني في الحسد نفسه أو في فعل الحسد، لكنه قد يكون مخاضا لشيء جميل، قد يكون علامة على نجاح أو إنجاز أو حب، لم تطقه نفس مريضة، استحوذ عليها الحسد، فسد عليها آفاق الحياة.

كلما أطفتُ بناظري في ديوان المتنبي، والذي اكتوى بنار الحسد غير مرة، أجد عنده التعامل الخاص مع هذا الداء العياء.

وشى به الحساد عند سيف الدولة، فوهى ما بينهما من الود، فحملته نفسه الكبيرة إلى الانسحاب من بلاط سيف الدولة إلى مصر، لكن سيف الدولة ظل لاهجا بذكر المتنبي، لم يطق الحساد ذلك فزعموا أنه قد مات أو قتل، بينما هو لا يزال يرفل في ثوب الحياة القشيب، هناك في مصر.

نمت إلى علم المتنبي هذه المزاعم، فبعث إلى سيف الدولة برسالة إثبات حياة غير مشفوعة بتوقيعه، لأنها هي ذاتها توقيعه الفريد، يقول فيها:

يا مَنْ نُعيتُ على بُعْدٍ بمَجْلِسِهِ كُلٌّ بمَا زَعَـــمَ النّاعونَ مُرْتَهَنُ

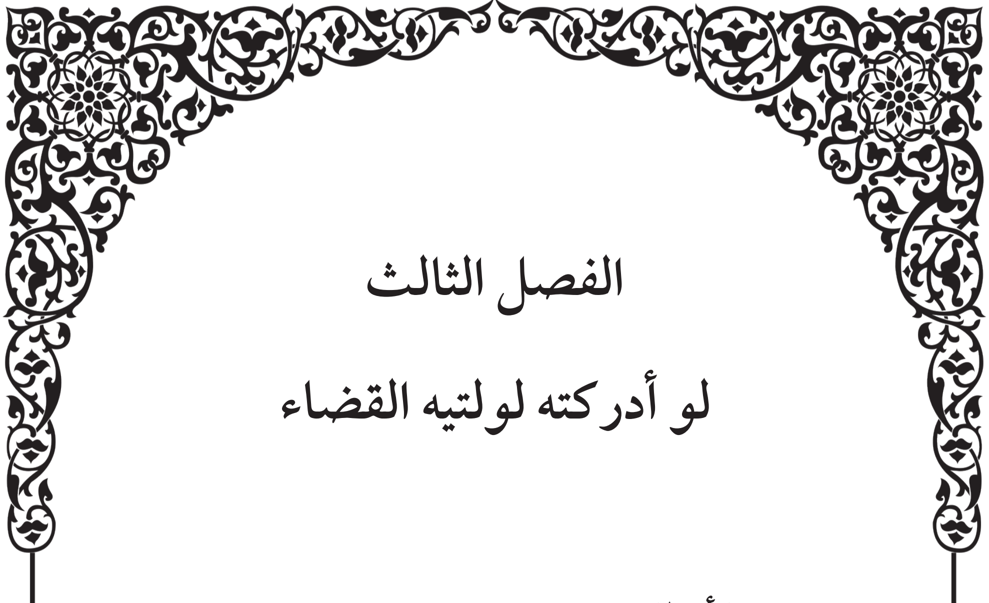
كمْ قد قُتِلتُ وكم قد متُّ عندَكُمُ ثمّ انتَفَضْتُ فزالَ القَبرُ وَالكَفَنُ

مَا كلُّ ما يَتَمَنّـــى المَرْءُ يُدْرِكُهُ تجرِي الرّياحُ بمَا لا تَشتَهي السّفُنُ

وقد جرت رياح الحياة العاصفة، بما لا تشتهي أنفس الحساد المريضة، فاقتلعت أكاذيبهم الفارغة.

تحدى أكاذيبهم بالحقيقة، وهزمهم بالثبات، فهم متعبون بندائهم اليائس، مثقلون بغيظهم المميت، إذ شتان بين الحقيقة والكذب كما قال المتنبي نفسه:

وَأَتْعَبُ مَنْ نـــــاداكَ مَنْ لا تُجيبُهُ وَأغيَظُ مَنْ عاداكَ مَن لا تُشاكِلُ



الفصل الثالث

لو أدركته لولتيه القضاء

- بقي ما أعطاكم.
- من هو شاعر الشعراء.
- لو أدركته لوليته القضاء.
- فقه الإسقاط.

الفصل الثالث: لو أدركته لوليته القضاء

من اللافت للنظر بالنسبة للمطلع على شخصية عمر بن الخطاب ﵁، من خلال أمهات كتب الأدب، إعجابه بشعر زهير بن أبي سلم،ى الشاعر الجاهلي المعروف صاحب المعلقة الشهيرة ومطلعها:

أَمِن أُمِّ أَوفى دِمنَـــــةٌ لَم تَكَلَّمِ ... بِحَومانَـــــةِ الـــــدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ

وَدارٌ لَهـــــا بِالرَقمَتَيـــــنِ كَأَنَّها ... مَراجِعُ وَشمٍ في نَواشِرِ مِعصَمِ

وليس بخاف على قارئ شعر زهير ماله من شخصية متوازنة، بالنسبة للحياة الجاهلية، إذ أنه متأله يحب الدين ويخاف الله تعالى ويؤمن بالحياة الآخرة، كما أنه داع للسلم وحقن الدماء، في زمن جاهلي لا صوت فيه فوق صوت المعركة.

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى وَمَهْمَـــــا يُكْتَمِ اللهُ يعلم

ويشدو بالفضيلة ويدعم القيم النبيلة:

وَمَنْ يُوْفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُهْدَ قَلْبُهُ ... إِلَى مُطْمَئِنِّ البِـــــرِّ لا يَتَجَمْجم

وينشد السلام والحرية للشعوب:

وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً ... بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ القَوْلِ نَسْلَمِ

فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ ... بَعِيدَيْنِ فِيْهَا مِـــــنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمِ

والذي يعرف شخصية عمر بن الخطاب ﵁، يدرك أن المعاني السالفة متى ما تحققت في شاعر وظهرت في إنتاجه الشعري، فإن الفاروق سيكون من أشد

المعجبين بشعره.

• وبقى ما أعطاكم:

التقى عمر بن الخطاب ﵁ يوماً برجل من ولد هرم بن سنان، وهو أحد زعماء القبائل الذين كان لهم دور بارز في حقن الدماء في حرب داحس والغبراء، والتي امتدت حوالي أربعين عاماً، وقد مدحه الشاعر زهير بن أبي سلمى على موقفه هذا، فأجزل له هرم في العطاء، فقال عمر ﵁ للرجل: فأنشدني بعض ما قال فيكم زهير، فأنشده.

فقال: لقد كان يقول فيكم فيحسن، فقال: يا أمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل، فقال عمر كلمة تدل على بصره النافذ وعمق تجربته النقدية: ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم.

نعم لقد بقى شعر زهير بقاء القيم وذهبت عطايا هرم ذهاب الزبد الذي تجرفه السيول، إنها رسالة الفاروق من موقع مسؤوليته في الدولة، يشيد بالفن الراقي الذي يبني الفرد على أسس من القيم والمعاني النبيلة.

نعم، إنه لكما قال الشاعر العباسي دعبل الخزاعي:

ويقول إن ذاق الردى مات شعره ... وهيهات عمر الشعر طالت طوائله

سأقضي ببيت يحمد الناس أمره ... ويكثر من أهـــل الرواية حامله

يموت رديءُ الشعر من قبل أهله ... وجيده يبقـــى وإن مات قائله

• من هو شاعر الشعراء؟

من مهارات الفاروق القيادية التي نجدها في تضاعيف من مواقف حياته،

أنه كان محفزاً بارعاً، فقد استطاع أن يوجه طاقة الذكاء والعبقرية عند عبدالله بن عباس ﷺ إذ قال له يوماً، وقد وجد فيه مخايل النجابة: هذا فتى الكهول له لسان سؤول وقلب عقول.

اجتمع الفاروق ﷺ و ابن عباس ﷺ في مجلس يوماً، فقال له الفاروق: هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قال: ومن هو ؟ قال الذي يقول:

ولو أن حمداً يُخْلِدُ الناس أُخلِدوا ولكنَّ حمدَ الناس ليس بمخْلِدِ

قال ابن عباس: ذاك زهير، قال عمر: فذاك شاعر الشعراء؟ فسأله ابن عباس: وبم كان شاعر الشعراء؟

إن الذوق الأدبي ليظهر جلياً في إجابة عمر ﷺ، حتى ليخيل إليك أنك تقف على رأي أحد كبار نقاد الأدب يقول:

لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب حشو الشعر، ولم يمدح أحداً إلاَّ ما فيه.

لقد استجمعت كلمته صفات الأديب البارع والشاعر الموهوب، الذي يستشعر مسؤولية الموهبة، خصوصاً إذا كانت هذه الموهبة تسهم في تشكيل الرأي العام.

ويبدو أن ابن عباس قد وعى الدرس من أستاذه الفاروق ﷺ، حتى غدا حجة الأدب في المناظرات الأدبية، يدلل ببراعة على قاعدة الفاروق النقدية سالفة الذكر.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: بينما عمر بن الخطاب وبعض أصحابه يتذاكرون الشعر فقال بعضهم: فلان أشعر، وقال بعضهم بل فلان أشعر، قال:

فأقبلت: فقال عمر: قد جاءكم أعلم الناس بها، فقال عمر: من شاعر الشعراء يا ابن عباس ؟ قال فقلت: زهير بن أبي سلمى، فقال: هلم من شعره ما نستدل به على ما ذكرت. فقلت: امتدح قوماً من بني عبدالله بن غطفان، فقال:

لوْ كانَ يقعُدُ فوْقَ الشّمسِ من كَرمٍ قَوْمٌ لأَوّلُهُمْ يَوْمـــاً إذا قَعَدُوا

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِـــنَانٌ حِينَ تَنْسُبُهُم طابُوا وطابَ منَ الأَوْلادِ ما وَلَدُوا

مُحَسَّدونَ على ما كانَ من نِعَمٍ لا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ ما بِهِ حُسِـــدُوا

فقال عمر: أحسنت، وما أعلم أحداً أولى بهذا الشعر من هذا الحي من بني هاشم، لفضل رسول الله ﷺ وقرابتهم منه، فقلت: وفقت يا أمير المؤمنين ولم تزل موفقاً.

- **لو أدركته لولتيه القضاء:**

القائل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه والمقصود هو زهير بن أبي سلمى، إنه الفاروق في تجرده وموضوعيته، الموضوعية والحيادية جعلت ثاني رجل في الإسلام يرجو تولية رجل جاهلي، أليست هذه تربية الإسلام ؟ نعم لقد شهد عمر الرسول ﷺ في صلح الحديبية وراقب عن كثب تشوقه للصلح وواقعيته في التفاوض، حتى أن النبي ﷺ وصف أحد زعماء وفود قريش في الصلح بلين العريكة والسهولة في المعاطاة وهو سهيل بن عمرو، الذي قال عنه النبي ﷺ حين قدم: «لقد سهل أمركم»، بل إن النبي ﷺ أشاد بحلف جاهلي وهو حلف الفضول وقال: «لو دعيت له في الإسلام لأجبت»، إنها موارد فقه عمر، التي جعلته يقر بالحسنة وإن صدرت من جاهلي.

لكن ترى ما السبب الذي لأجله تمنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنصيب زهير

القضاء؟

من الواضح أن عمر بن الخطاب ﵁ كان يحفظ بعض أشعار زهير إن لم يكن جلها، وفي يوم أنشد عمر ﵁ شئياً من شعر زهير فلما بلغ قوله:

فـــإن الحق مقطعـــه ثلاث يميـــن أو نفـــار أو جلاء

جعل عمر يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها، يقول: لا يخرج الحق من إحدى ثلاث؛ إما يمين أو محاكمة أو حجة، وقال: لو أدركت زهيراً لوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق.

- **فقه الإسقاط:**

لقد بدا عمر مرنا في تقبل شعر زهير والإعجاب به، لما توافر لديه من فقه الإسقاط، وقد مر معنا كيف وجه أبيات زهير التي قالها في عبدالله بن غطفان الجاهلي إلى بني هاشم وآل بيت النبي ﷺ.

أنشد عمر ﵁ مرة قول زهير في هرم بن سنان:

دَعْ ذَا وَعُـــدَّ الْقَـــوْلَ فِي هَرِمٍ خَيْرِ الْكُهُولِ وَسَـــيّدِ الْحَضَرِ

لَوْ كُنْتَ مِنْ شَـــيْءٍ سِوَى بَشَرٍ كُنْتَ المُنَـــوّرَ لَيْلِـــةَ الْبَدْرِ

وَلأَنْتَ أَوْصَلُ مَنْ سَـــمِعْتُ بِهِ لِشَـــوَابِكِ الأَرْحَامِ وَالصّهرِ

وَلَنِعْمَ حَشْـــو الدّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيتَ نِزَالاً وَلَـــجّ فِي الذّعْرِ

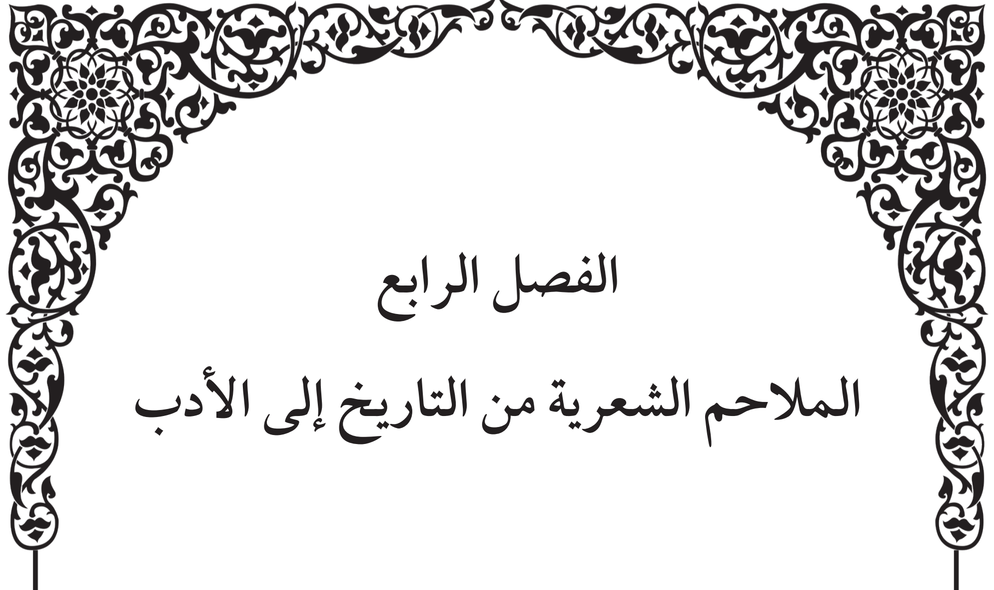
وَأَرَاكَ تَفْرِي مِا خَلَقْتَ وَبَعْضُ الْقَـــوْمِ يُخْلِقُ ثُـــمّ لا يَفْرِي

أَثْنِى عَلَيْكَ بِمَـــا عَلِمْتُ وَمَا أسْـــلَفْتَ فِي النّجْدَاتِ مِنْ ذِكْرِ

وَالسِّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

فقال عمر: ذلك رسول الله.

إن الذي يفقه هذا الفقه، لديه بصر نافذ ورؤية واضعه، لا مشاحاة عنده في اللفظ ولا في الأشخاص وظواهر النصوص، وإنما يمتد بصره إلى المقاصد والغايات، قائل الأبيات جاهلي والممدوح بها كذلك، لكن لا مانع لدى الفاروق أن يكون المقصود الرسول صلى الله عليه وسلم وأن يسبغ معانيها عليه، إنه التجريد الذي جعله يحسن اصطياد ضوال الحكم، وشوارد التجارب الإنسانية، فيوجهها بالإسقاط، الذي يفضي إلى استثمارها في الخطاب أفضل استثمار.



الفصل الرابع

الملاحم الشعرية من التاريخ إلى الأدب

- أولها : الملحمة العمرية.
- ثانيا : الملحمة البكرية.
- ثالثها : الملحمة العلوية.

الفصل الرابع: الملاحم الشعرية من التاريخ إلى الأدب

كان ولا يزل للشخصيات الكبرى في التاريخ الإسلامي وخصوصاً كبار شخصيات الآل والأصحاب أثرها الكبير، وبريقها الوضاء، في مجمل التراث الإنساني والإبداع الأدبي، وقد وجدت أنه كلما امتدت الحقب وبعدت شقة الزمن بيننا وبين هذه الشخصيات، كلما زادت الرغبة في حضورها واستلهام قيمها وبطولاتها، وذلك لما حملت من قيم العدالة والرحمة والبطولة والحكمة والتواضع والعلم والمسؤولية.

وفي مطلع القرن الماضي تنافس شعراء في حلبة هذا الاستدعاء، لجملة هذه الأمجاد والمفاخر، ومن خلال مطولات شعرية ملحمية في شخصيات شهيرة في التاريخ الإسلامي، مثل أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب و علي بن أبي طالب و خالد بن الوليد رضي الله عنهم، وصلاح الدين الأيوبي و عمر بن عبدالعزيز... وغيرهم، أو في أحداث تاريخية كبرى كغزوة بدر أو أحد أو موقعة حطين أو الحروب الصليبية... وغيرها من معارك وأحداث.

وكتابة الملاحم الشعرية منحى أدبي، اختلف بعض النقاد وكتاب التاريخ الأدبي في اعتباره من مخترعات المخيلة العربية، أم أنه مستعار من أدبيات أمم أخرى، لكن على أية حال فقد كانت فيه إبداعات عربية لا تنكر.

جاء تعريفه في قاموس روبير: قصيدة طويلة يختلط فيها العجيب بالواقع غايتها الإشادة ببطل أو بحادث عظيم[١].

(١) الأجناس الأدبية، ايف ستالوني، ص ١٠٢ .

ويرى بعض النقاد أن من أبرز دواعي هذا اللون الأدبي في العصر الحديث؛ ما تثيره حالة التمزق والتخلف التي تعاني منها الأمة الإسلامية، من ترقب وتطلع لقائد بطل، يلملم شتات الأمة ويوحد صفوفها ويقودها للمجد والريادة الأممية.

وفي هذا السياق بزغت في سماء الأدب بطولات إسلامية، كانت فرس رهان في مجال الملاحم التاريخية المستدعية للبطولة والمجد.

• أولها: الملحمة العمرية لشاعر النيل حافظ إبراهيم:

وقبل البدء بالحديث عن هذه الملحمة أحب أن أنوه، أن لشخصية عمر بن الخطاب ﷺ بريقاً أخاذاً مميزاً، ظهر انعكاسه على أعمال أدبية إبداعية رائدة، منها: عمر يظهر في القدس، وهي رواية رائعة للأديب نجيب الكيلاني، ومنها مسرحية الملحمة العمرية للروائي الكبير على أحمد باكثير.

أما قصيدة حافظ إبراهيم فمطلعها:

حَسْبُ القَوَافِي وَحَسْبِي حِينَ أُلْقِيهَا	**أَنِّي إِلى سَاحَةِ الفَارُوقِ أُهْدِيهَا**
لا همَّ هب لي بيانا أســـــتعين به	**على قضـــــاء حقوق نام قاضيها**
قد نازعتني نفســـــي أن أوفيها	**وليس في طوق مثلي أن يوفيها**
فمر ســـــري المعاني أن يواتيني	**فيها فإني ضعيف الحال واهيها**

في القصيدة تشخيص رائع لشخصية عمر بن الخطاب ﷺ، والذي يدعو للدهشة فيها هو هذه الثقافة العالية التي يتمتع بها الشاعر، بل إنك لتعجب كيف تأتى للشاعر إساغة الوشائح بين التاريخ العلمي المصمت وبين الشاعرية الغضة المتدفقة، يتناوب فيها ظاهر فيه النداء للتاريخ والتغني بالأمجاد وباطن فيه تلبية

للواقع واستجابة للراهن.

يخاطب أبا لؤلؤة المجوسي قاتل عمر بن الخطاب ﷺ، في مستهل موضوعات ملحمته، ويدعو عليه بلسان المحزون الثاكل:

مزقت منه أديما حشـــوه همم في ذمة اللـــه عاليها وماضيها

طعنت خاصرة الفاروق منتقما من الحنيفـــة في أعلى مجاليها

ثم يعطف الحديث بلطف بعد أبيات، للحديث عن مناقب عمر ﷺ:

رأيتَ في الديـــن آراءً موفقة فأنـــزل الله قرآنـــا يزكيها

وكنـــت أول من قرت بصحبته عينُ الحنيفة واجتازت أمانيها

فيترسل الشاعر إلى الحديث عن إسلام عمر ﷺ، ثم إلى بيعته لأبي بكر الصديق ﷺ، وهكذا يتنقل الشاعر في أمجاد هذه الشخصية العظيمة ومآثرها البهية، في عدله وزهده وحزمه وتربيته ومسؤوليته.

تأمل قول الشاعر في عدل الفاروق وإنصافه:

فما القوي قويـــا رغم عزته عند الخصومة والفاروق قاضيها

وما الضعيف ضعيفا بعد حجته وإن تخاصـــم واليها وراعيها

وفي عزل خالد بن الوليد عن قيادة جيش المسلمين في اليرموك يقول الشاعر على لسان الفاروق:

فقال خفتُ افتتان المسلمين به وفتنة النفس أعيت من يداويها

ثم قال:

تالله لم يتَّبع في ابن الوليد هوى ولا شفى غلة في الصدر يطويها

لكنه قـــد رأى رأيـــا فأتبعه عزيمة منه لـــم تثلم مواضيها

إن الذي برأ الفـــاروق نزهه عن النقائص والأغراض تنزيها

إلى أن يقول:

لا الكبر يسكنها لا الظلم يصحبها لا الحقد يعرفها لا الحرص يغويها

وليس بخاف عليك أيها القارئ ما أراد الشاعر إبرازه في هذه الأبيات، فإنك تدرك أن الفاروق لا يداهن ولا يحابي في قراراته، وكان بعيداً عن الأهواء وغلائل الصدور، وكان ينفذ العادلة والإصلاح والمصلحة العامة التي يمليها عليه ضميره.

لم يكن قصد الشاعر مجرد الاستذكار والتغني بالمجد التليد، والتباكي على أطلال التاريخ، إنه أراد لهذا التاريخ أن يتحرك في أبناء اليوم بالصورة المتحركة والشاعرية المتدفقة، إنه رأى أمته مكبلة بقيود واقع مرير، ملؤه الفساد والمحسوبية والتخلف والاستغلال، فاستحضر الفاروق قائداً ربانيًّا، استشعر مسؤوليته التاريخية في إدارة شؤون أمته.

هذي مناقبه فـــي عهد دولته للشاهدين وللأعقاب أحكيها

فـــي كل واحدة منهـــن نابلة من الطبائـــع تغذو نفس واعيها

لعل في أمة الإســـلام نابتتة تجلـــو لحاضرها مرآة ماضيها

حتى ترى بعض ما شادت أوائلها من الصروح ومـــا عاناه بانيها

وحسبها أن ترى ما كان من عمر حتى ينبه منها عيـــن غافيها

• ثانياً: الملحمة البكرية للشاعر عبدالحليم المصري:

ولد الشاعر «عبدالحليم المصري» عام ١٨٨٧م وتوفي ١٩٢٢م، وهو شاعر ومؤرخ التحق في مقتبل حياته بالمدرسة العسكرية وعمل في السودان ثم استقال، له ديوان شعر من ثلاثة أجزاء وبعض الكتب التاريخية.

يبدو من تتبع بعض الباحثين في الأدب، أن القصيدة البكرية ألقيت بعد عمرية حافظ إبراهيم بثلاثة شهور.

تبلغ هذه الملحمة مائتين وخمسة أبيات.

دشنها بمطلع إبداعي اشتمل على رسالة اعتذار للنبي ﷺ، طلب الشاعر من أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يبلغها إياه ﷺ، يقول فيها:

أفضني أبا بكــــر عليهم قوافيا وأمطر لســــاني حكمة ومعانيا

وقل لرسول الله لم أعد مدحه وإن لم أكن فيه بشـــعري باديا

مقام رسول الله فوق قصائدي وهل شرر النبراس يجدي الدراريا

وإنك في الإســـلام من حسناته فمدحك كنّى عنــــه دون بيانيا

وقفت بباب اللــــه والقول نافرٌ فأوقر لــــي الصديق منه ركابيا

بأول صديـــقٍ، وأول مؤمنٍ وأول شوريٍّ أشـــد رجائيا

وهكذا تمخر سفينة الشعر بحر الفضائل الزاخر، لتنقلب إلينا محملة بجواهر المعاني والقيم والمآثر، إن هذه الأبيات تدندن على ما كان يدندن عليه شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه:

إذا تَذكَّرتَ شَجواً مِن أَخي ثِقَةٍ فَاذكُر أَخاكَ أَبـــا بَكرٍ بِما فَعلا

خَيرَ البَرِيَّةِ أَنقاهـــا وَأَعَدَلَها إِلاَّ النَّبِـــيَّ وَأَوفاها بِما حَمَلا

وَالثانِيَ الصادِقَ المَحمودَ مَشهَدُهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنهُم صَدَّقَ الرُسُلا

ينتقل الشاعر مع مشاهد الصديق ﵁ ومواقفه العظمى في أكثر من سبع عشرة لوحة، فمن إسلامه، إلى تصديقه بالإسراء، إلى عتقه لبلال ﵁، إلى موقفه في الغار وصحبته مع النبي ﷺ، إلى موقفه من حرب الردة وتسييره جيش أسامة بن زيد ﵁، وهكذا فإن الشاعر ليغرف من معين لا ينضب.

خذ مثلاً قول الشاعر في آخر أبياته حول تصديق أبي بكر ﵁ بحادثة الإسراء والمعراج، والتي لأجلها سمي أبو بكر بالصديق ﵁:

فسائل به الآيات كم حفظت له على الدين من بعد النبي أياديا

يطل أبو بكر بـــكل صحيفة عليك من القرآن إن كنت تاليا

فهو يطل عليك من قول الله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾[2]، و ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾[4] بالإضافة إلى آيات أخرى في كتاب الله تعالى تحدثت عن مواقف الصديق ﵁ ومشاهده.

وكان من أعظم مواقفه موقفه بالغار في هجرته مع النبي ﷺ، هنا تلحظ إشراقاً في خطاب الشاعر، وتألقاً فنياً زاوج بين السرد والحوار:

وهاجر فاستندى المحبة صاحباً مع الخطب طلاعاً على العهد وافيا

---

(١) سورة التوبة:٤٠ .

(٢) سورة الليل:٥ .

(٣) سورة الليل:١٧ .

(٤) سورة الليل:١٩ .

تقدمْتَهُ في الغار تستقبل الأذى ... كذلك صدر الرمح يلقى العواديا

فنام ووعد اللـــه يؤنس قلبه ... كذلك صدر الرمح يلقى العواديا

إذا لدغتك الجن ألفتك صابراً ... على السم تخشى أن تروع غافيا

ولم يُبق منك الوهن إلا أصابعاً ... فألقمتهـــا دون النبي الأفاعيا

وما انتبهت عيناه لولا تساقطت ... دموع أبي بكـــر عليه هواميا

كما أن موقفه عند وفاة النبي ﷺ كان موقفاً عظيماً، يشير إلى ما كان يحمله من إيمان راسخ، أليس هو الذي أخبر عمر رضي الله عنه بأن إيمانه لو وُزن بإيمان أهل الأرض لَرَجَحَ بهم؟، موقف صعب ذهلت فيه عقول وطاشت أحلام وتزعزعت نفوس، هنا ظهر أبو بكر رضي الله عنه راجح العقل راسخ الإيمان، قال بلسان التوحيد ونبرة الرضى بأمر الله: «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت».

استطاع شاعرنا باقتدار أن يصور هذا المشهد، بما يحمل من وقائع وانطباعات ومواجيد، فصور موقف عمر رضي الله عنه وحالة الذهول التي تملكته.

وريع أبو حفص بموت محمد ... فهاج كما استعديت في الفيل ضاريا

وقال ورب البيت لست بمنثن ... إذا قلتموهـــا أو أقط النواصيا

ثم عطف بذكر موقف الصديق الأثير في هذه اللحظة العصيبة في تاريخ البشرية، فتجد في أبياته ساعات الهول والأسى ممتزجة بلحظات الطمأنينة والسكون:

وأنســـاه هول الخطب آية ربه ... وليس أبو بكر على الخطب ناسيا

نُهى لم يزدها الهول إلا حصافة وما زعزعت منها الرياح رواسيا

ويظهر في ختام القصيدة؛ اتحاد غرض الشاعر مع شاعر النيل في العمرية، إذ كانت أبصارهم على واقع الأمة، يستدعيان من خلال هاتين الملحمتين شخصيات مخلصة لواقع مرير تعيشه الأمة.

أربُّ أبي بكر سيخلق مثله فيدرك من بنيانه متراميا

بقية إيمان وآثار أمةٍ توارت عن الأبصار إلا بواقيا

ذكرت أبا بكر لقومي وليتني بلغت به ما كنت في القول راجيا

لعل سراة الدهر تبلغ فَجْره فإني أرى الإصباح يتلو الدياجيا(١)

• **ثالثها: العلوية للشاعر «محمد عبدالمطلب»:**

الشاعر «محمد عبدالمطلب» من شعراء النهضة المرموقين (١٨٧١-١٩٣١)، وهو شاعر مصري، ولد بمصر، وتعلم في الأزهر ودار العلوم، واشتغل بالتدريس في المدارس النظامية، ومدرسة القضاء الشرعي، ودار العلوم وقسم التخصص باللغة العربية بالأزهر، وكان عضواً بجمعية المحافظة على القرآن الكريم، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الهداية الإسلامية، شارك في الحركة الوطنية، وله كتاب: «تاريخ أدب اللغة العربية» «ثلاثة أجزاء»، وكتاب الجولتين في آداب الدولتين الأموية والعباسية.

وقف بعض النقاد على قصيدته «العلوية»، وقدروا أن نَفَس المعارضة للقصيدتين السابقتين ظاهرٌ فيها، غير أن الشاعر ربما غفل إلى حد كبير في تقصيه

(١) بكرية المصري .. صحيفة من سيرة أول الخلفاء الراشدين ، عبدالحليم المصري ، ص ٧ - ٤٨.

لمشاهد علي بن أبي طالب ﵁ التاريخية، عن النظر إلى الواقع واستدعاء مآثر هذه الشخصية العظيمة، خصوصاً إذا علمنا أن قصيدة العلوية قد بلغت زهاء الثلاثمائة بيت تقريباً.

وعلى الرغم من طول القصيدة إلا أن الشاعر قد سار مساراً انتقائياً، لم يلتزم فيه على وفق ترتيب ملامح الشخصية تاريخيًّا، كما أنه أهمل أحداثاً تاريخية مهمة في حياة الإمام علي ﵁.

وقد ابتكر الشاعر في مطلع قصيدته أيما ابتكار، حاول جاهداً رد تهمة الرتابة عن شعراء المدرسة التقليدية، وإرضاء جماعة مدرسة الديوان، لكنه لم يسلم من نقدهم. قال في مطلعها:

أرى ابن الأرض أصغرها مقاما فهل جعل النجـــوم بها مراما

زهــــاه رونق الخضـــــراء لما تلفــــت في مجرتها وشـــاما

فشـــــد على كواكبهـــا مغيراً وحلق في جوانبهـــا وحاما

على بنت الهــــواء كأن طيفاً يشـــق الجو يقطعــــه لماما

إذا ما هزمت فـــــي الجو خِلْنَا جبـــال النجم تنهـــد انهداما

وإن زجر الريــــاح جرت رخاء وولت حيث يأمرهـــا الزماما

أجدك ما النياق وما سُـــراها تخوض بهـــا المهامه والأكاما

وما قطر البخار إذا اســـتقلت بها النيـــران تضطرم اضطراما

فهب لي ذات أجنحـــة لَعَليِّ بها ألقى على الســـحب الإماما

ثم مضى الشاعر يصف مشاهده في الإسلام، فمن إسلامه إلى استخلافه ليلة الهجرة، إلى بلائه يوم أُحد ويوم الخندق ويوم خيبر وقتله مرحباً، وهي مواطن غلب عليها النظم لوقائع تاريخية، لكنه حينما تحدث عن صفات علي رضي الله عنه النفسية وقيمه ؛ أشرق أسلوبه وشعَّ فيه الوجدان.

تأمل قوله عنه في زهده في الدنيا:

ونفســـــاً لم تذق طعم الدنايا ... ولا لذت من الدنيـــا طعاما

غذاها الدين مُذْ كانت فشــــبَّتْ ... على التقـــوى رضاعاً وانفطاما

ونشـــأها على كـــرم وأيْدٍ ... وصاغ من الجــــلال لها قواماً

وقال عن عبادته:

وكم أجرى على المحراب دمعا ... لخوف الله ينســـجم انسجاما

صلاة الليل يجعلها ســــحورا ... إذا ما في الغــــداة نوى الصياما

تـــرى صبر القنـــوع له غذاء ... جرى دمع الخشـــوع له إداما[1]

الخلاصة:

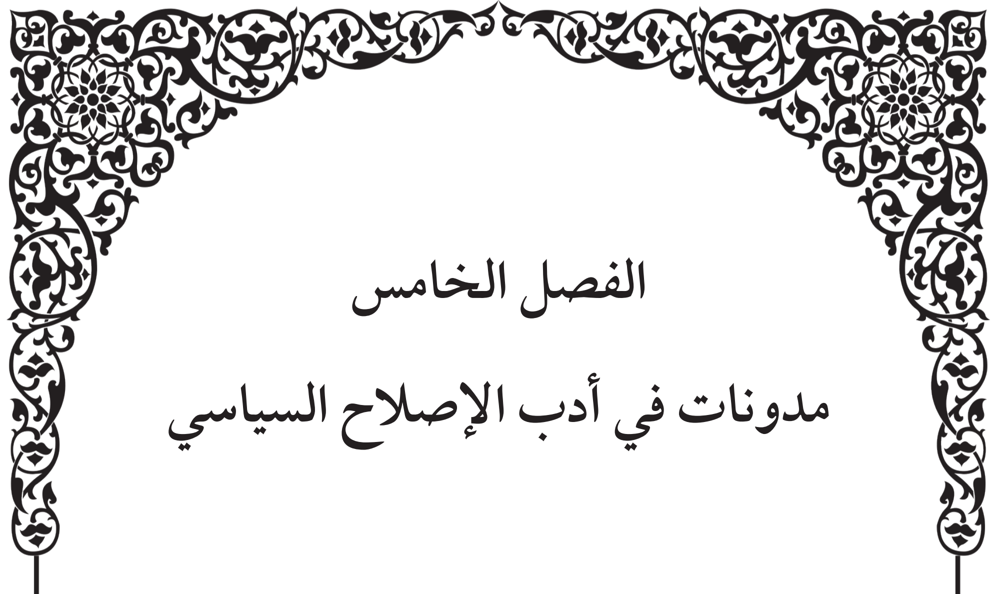
إنها مطولات شعرية، وعلى الرغم من طولها إلا أنها لم تنزل عن مستوى الجمال الفني إلا في مواضع قليلة منها، اكتسبت جمالها من تراث زاخر وتاريخ مليء بالبطولات، وعى الشاعر في هذه المطولات والملاحم مسؤوليته التاريخية، له عينان يستملي منهما مادته للإبداع، عين على تاريخ تليد فيه هذه الشخصيات

---

(١) تنظر القصيدة كاملة في: القصائد الإسلامية الطوال في العصر الحديث ، د. حلمي القاعود ص ٢٤٩- ٢٦٩.

الشامخة من الآل والصحب، قامت على أكتافهم حضارة عظيمة، وعين على واقع يعوزه أمثال هؤلاء الرجال.

هذه ملاحم رائعة في تاريخ الشعر الحديث أغفلها التاريخ، -أكتب ما تقدَّم لعلي- أنفض عنها غبار النسيان، ولعلَّ شاعراً يستلهم منها إبداعاً جديداً. ويبقى ميدان الإبداع مفتوحاً وشريعة البحث تكتنف ماءً نميراً للوراد.



الفصل الخامس

مدونات في أدب الإصلاح السياسي

- الفقيه أبو سحق الألبيري والوزير اليهودي.
- وقصيده تعزل ابن عمار الوزير الفاسد.
- قصيدة أنجم السياسة.
- أهوى الحياه كريمة.

الفصل الخامس: مدونات في أدب الإصلاح السياسي
«إما اعتدلت و إما اعتزلت»

يتأكد لدي من خلال أقوال بعض الفقهاء والعلماء، في مسألة الإصلاح السياسي ما يتوافر في المنظومة الفقهية من المسوغات والدواعي والعقبات المحتملة والحلول، بالإضافة إلى إسهاماتهم العملية في مساعي الإصلاح السياسي، أقول إنه يتأكد لدي أن هذا النشاط الفكري والفقهي كان له انعكاسات على الحياة الأدبية، خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار أن الفقهاء كانوا شخصيات عامة فاعلة في مختلف مناحي الحياة، فقد يكون الفقيه ناشطاً سياسياً أو أديباً شاعراً، يملك بعض الأدوات الفنية الفاعلة في المجتمع.

وفيما يلي أطوف بكم مع طائفة من مدونات الأدب العربي، التي استلهمت جملة من النظريات السياسية الإسلامية فكانت انعكاساً لها أو قريباً من ذلك، خصوصاً تلك النظريات الداعمة للإصلاح وتقرير العدالة، وتعزيز الحريات العامة للشعوب.

ألمحت في المقدمة إلى العبارة التي عنونت بها الكتاب وهي: إما اعتدلت وإما اعتزلت.

أصل العبارة كما جاء في بعض كتب الأدب، أنها توقيع للمأمون وجهه إلى بعض ولاته المفسدين يقول فيه: «قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

إنه في الزمن الذي فرضت فيه العدالة سلطانها، فأثمرت حضارة جبارة هيمنت على حضارات العالم ومراكز المعرفة ردحاً من الزمن، فأفادت الحضارات منها العديد من الأفكار في مجالات المعرفة والفن، كانت الكلمة السالفة التي جعلنا منها عنوان هذا الفصل، تصدر من الخلفاء والأئمة إلى الوزراء والعمال والولاة.

وحينما خيم الظلم، وشاعت الفوضى، وضاعت الحقوق، وانتهكت الحريات، قالتها الشعوب المنهوكة للأمراء والخلفاء أو من قام مقامهم من رؤساء الدول والجمهوريات، بل ربما وصل العنت في الشعوب أن يحكيها حالهم إذ لم يتمكنوا من قولها.

والأدب مرآة عاكسة لما تعانيه الأمم، والشعر على وجه الخصوص معبر صادق عن مواجيد الشعوب في آلامها وآمالها.

وفيما يلي نطوف مع الشعر العربي فاعلاً ومنفعلاً، فاعلاً في إحداث التغيير المنشود الذي يتطلع إليه المصلح، ومنفعلاً أي يكون معبراً صادقاً عن النفوس المقهورة تحت الظلم، والحريات التي ترسف في الأغلال والقيود، لدرجة أن يجعل هذا الشعر المتلقي يقف على واقع ما تعانيه الشعوب، وما يضطرم في نفوس المظلومين والمحرومين من نار المآسي والظلم.

- الفقيه أبو إسحق الألبيري والوزير اليهودي:

عارض الشاعر الأندلسي أبو إسحاق الألبيري استوزار حاكم غرناطة باديس بن جيوس؛ لرجل يهودي اسمه يوسف بن إسماعيل، والذي يعرف بابن النغرله، وقد استغل هذا الوزير منصبه فصدر قرارات ظالمة، حابى بها أتباع دينه، وعاثت يده بأقوات المسلمين، وبث الفرقة والفتنة في غرناطة.

فضم الشاعر صوته إلى أصوات المخلصين من العلماء والشعراء ورجال الدولة، المطالبة بعزل هذا الوزير الفاسد، فلم يعرهم الحاكم اهتماما بل لج في عنته، وزج بعض المعارضين له في السجون وكان منهم شاعرنا الألبيري.

وبينما هو في سجنه في جبل ناء من نواحي غرناطة، كتب قصيدة يستنهض بها أهل غرناطة، للوقوف جبهة واحدة في مواجهة هذا الظلم السافر والعبث بمقدرات الأمة، كانت النتيجة أن أورى الشعر زناد الإصلاح، الذي أفضى إلى عزل الوزير قال الألبيري.

ألا قل لصنهاجـــة أجمعين بدور الندي وأســـد العرين

لقـــد زل ســـيدكم زلـــة تقر بهـــا أعين الشـــامتين

تخيـــر كاتبـــه كافـــرا ولو شـــاء كان من المسلمين

فعز اليهـــود بـــه وانتخوا وتاهوا وكانـــوا من الأرذلين

إلى أن قال يستحث الحاكم باديس إلى اتخاذ القرار الصحيح، الذي يرد الأمور إلى نصابها، ويحذره من البطانة الفاسدة:

أباديـــس أنت امـــرؤ حاذق تصيب بظنك نفـــس اليقين

فكيف اختفـــت عنك أعيانهم وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيـــف يتم لـــك المرتقى إذا كنت تبنـــي وهم يهدمون

وكيف اســـتنمت إلى فاسق وقارنته وهو بئـــس القرين

وقد أنـــزل الله فـــي وحيه يحذر من صحبة الفاســـدين

وعن المظالم التي قاموا بها، وعبثهم في الأموال العامة يقول:

وإنـــــي احتللـــــت بغرناطة　　　فكنـــــت أراهم بهـــا عابثين

وقـــد قســـموها وأعمالها　　　فمنهـــم بكل مـــكان لعين

وهـــم يقبضـــون جباياتها　　　وهم يخضمون وهم يقضمون

وهم يلبســـون رفيع الكســـا　　　وأنتـــم لأوضعها لابســـون

وهـــم أمناكم على ســـركم　　　وكيف يكون خـــؤون أمين

ويـــأكل غيرهـــم درهما　　　فيقصى ويدنـــون إذ يأكلون

إنها صور من انقلاب الموازين، التي أنطقت الشاعر وغيره من الغيارى بهذه اللهجة الصادقة والتجربة المريرة، عبر بشاعرية فياضة حكت معاناة المظلوم ومصاب المكلوم.

– وقصيده تعزل ابن عمار الوزير الفاسد:

وأبيات أخرى أفضت إلى عزل الوزير ابن عمار، قالها رجل من الشعراء يقال له أبو شبل عاصم بن وهب البرجمي، يهجو بها الوزير الفضل بن مروان، لاصطناعه أحمد بن عمار واعتنائه به حتى استوزره المعتصم، وكان ابن عمار هذا جاهلاً فاسداً، وبسبب تمكينه من بعض شؤون الدولة حدثت مظالم ومفاسد.

يقول أبو شبل في أبياته:

ماذا احتملناه للفضل ابن مروان　　　أباده الله من ظلـــم وعدوان

حتى مضت ظلمـــا أيام دولته　　　لم يتضح بدجاها ضوء إنســـان

أبقى دليلا عليـــــه في عماوته كما استدل على أصل بأغصان

مثلان في الغي لم ينُهِضْهُما أدب مستحوذان على جهل شبيهان

لولا الإمامُ أبو إســـــحاق إن له عنايةً بالقصي الـــــدارِ والداني

لأصبح الناس فوضى لا نظامَ لهم ولم يُدَلَّ على حـــــق ببرهان

فلما بلغت الأبيات المعتصم عزل ابن عمار.

وكان من القلائل الذين دعوا إلى الإصلاح السياسي صراحة، وانتقدوا ظلم السلطة للشعوب، الشاعر الشهير أبو العلاء المعري، فقد سلك مسلك التصريح بممارسات أولياء الأمور الظالمة، وتعديهم على مصالح الشعوب يقول:

مُلَّ المُقامُ فكَم أُعاشِـــــرُ أُمَّةً أَمَرَت بِغَيـــــرِ صَلاحِها أُمَراؤُها

ظَلَموا الرَعيَّةَ وَاِستَجازوا كَيدَها فَعَدَوا مَصالِحَها وَهُم أُجَراؤُها

ومن قبله شكى أبو الطيب المتنبي انقلاب الموازين في مصر زمن كافور الإخشيدي، وسجل تبرما من ولاية غير الكفء فيما يرى، وسريان النفاق السياسي، لعلك تجد في أبياته التالية، إشارة واضحة إلى خطورة الإعلام في تضليل الرأي العام، وتغيير الحقائق وقلب الموازين في تصورات الجماهير، يقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنّـــــه ضحـــــك كالبكا

بهـــا نبطيّ من أهل الســـــواد يدرس أنســـــاب أهـــــل العُلا

وأســـــودُ مشـــــفرُهُ نصفُهُ يقال لـــــه أنت بـــــدر الدجى

وفي مثل هذه الجريمة النكراء؛ وهي التضليل الإعلامي الذي تتلاقى فيه مصالح ضعاف النفوس من الظلمة والمنافقين يقول شاعر بمرارة:

وأقتل داء رؤيــــة العين ظالما   يسئُ ويُتلى في المحافل حمدُهُ

- قصيدة أنجم السياسة:

وهناك قصيدة أخرى تشي بهذا البعد السياسي اللماح في «أجندة» الشعر العربي، الذي ينشد ضالة العدالة والحقوق والحريات والمساواة، وهذه القصيدة قد نظمت قواعد الحكم، وجمهرة من آداب السياسة والأحكام السلطانية، رجح بعض الأدباء أن كاتبها الوزير أبو محمد بن المالقي أسماها «أنجم السياسة»، وهي من ألصق القصائد فيما نحن فيه، تمثل تغطية شاعرية وجدانية لشؤون السياسة والحكم، ولما تتطلع إليه الشعوب من العدالة والمساواة، ويبدو من هذه القصيدة أن قائلها صاحب تجربة سياسية ثرية، إذ حشد فيها عدداً من قواعد وحكم وآداب السياسة والملك.

كما يتضح أنه صاحب ثقافة شرعية عالية، إذ تظهر في قصيدته بجلاء، مقاصد التشريع السياسي في الإسلام، كالعدالة وتكافؤ الفرص والرحمة بالرعية وغيرها من المعاني، يقول في مطلعها:

يا أيها الملــــك الباهي محياه   أنت الذي تألف الأظعان مغناه

وفيها يقول:

ما الملك إلا عقيــــم لا وليّ له   مســــتهدف للأعادي من تولاه

فاحفظ بعدل وفضل زَوْرَ طائره   فالفضل والعدل إن تنظر جناحاه

واجف الجفا وتوق الظلم أجمعه فليس يســـعد إلا مـــن توقاه

ولا تذر دعوة المظلوم ســـائبة لا ســـيما إن يكن من لاله جاه

إذا تعمدّت إنســـانا بمظلمة ولم تجد ناصـــرا فالناصر الله

وارفع يد العامل العادي الذي كثرت به إليك الشـــكايا من رعاياه

لا قرب الله دار المرء يجعلني أبيـــع من أجله دينـــي بدنياه

وشاور العلماء المستضاءَ بهم فإن معذرة الســـلطان شوراه

وكل أمـــر له قوم بـــه عُرفوا فاندب لكل مهـــم أهل بلواه

لا يعرف الشوق إلا من يكابده جئنـــا به مثلا كما ســـمعناه

وقوله:

وكل أمـــر له قومٌ بـــه عُرفوا فاندُب لكل مهـــم أهل بلواه

وهذا البيت يذكرنا بما قررته الشريعة الإسلامية، من استكفاء الأمناء، التي عناها الرسول ﷺ بقوله: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة».

وفيها يقول:

لا تنكر الظلم ممن دام في عمل فإن طـــول مداه فيـــه أطغاه

وهذا بيت قد حكته وقائع الثورات في العالم العربي اليوم، كيف ننسى مشاهد خلع صور لرؤساء دول دام ملكهم عشرات السنين، حتى إذا حان أوان الرحيل، سقطوا على مناخرهم أذلة صاغرين، وقد اتفق القاصي والداني على أن طول مكثهم في الحكم لم يكن دليلاً على سلامة مسلكهم فيه، فدولة الظلم وإن

طالت ساعة، وأما دولة العدل، متى ما بقيت عادلة فإنها تدوم إلى قيام الساعة، وهذه القصيدة بلغت نيفا وتسعين بيتا.

- أهوى الحياة كريمة:

وفي العصر الحديث تداعت قرائح الشعراء لنجدة الشعوب المأسورة منذ عهد الاستعمار إلى اليوم، فاستجابت الشاعرية للراهن من الأحداث العصيبة، فازداد ما كتب من الشعر السياسي على ما كان يكتب في العصور السابقة، فألفينا شعراً ينشد الخلاص من المظالم، ويدعو إلى الثورة على الظالمين، حتى غدت أشعارهم أناشيد المحرومين وهتاف المسجونين، تعبد الطريق للحياة الكريمة.

ولعل قصيدة كقصيدة: «رسالة في ليلة التنفيذ» للشاعر «هاشم الرفاعي»، تعد من أجلى وأوضح الأمثلة على إسهام الشعر العربي الحديث في رسالة الإصلاح السياسي، وتحصين الشعوب من الخنوع للظلم والاستبداد، ويقول الشاعر قصيدته على لسان رجل حر؛ سعى جاهدا لتخليص أبناء بلده الذي يرزح تحت الظلم والبطش، حتى قدم روحه رخيصة في هذا السبيل، حين وقع في أيدي السلطات الطاغية، فحكموا عليه بعد محاكمة صورية هزلية بالإعدام شنقاً، لكن كتبت له الحياة الخالدة في نفوس أبناء أمته مصداقاً لقول «سيد قطب» -رحمه الله-: إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا متنا في سبيلها دبت فيها الروح وكتبت لها الحياة، يقول الشاعر:

هذا حديثُ النفسِ حينَ تشفّ عن ... بشــــرِيّتي وتمــــورُ بعد ثوانِ

وتقولُ لي: إنَّ الحيـــاةَ لغايةٍ ... أســـمى منَ التصفيقِ للطُغيانِ

أنفاسُكَ الحرّى وإن هي أُخمدتْ ... ســـتَظلّ تَغْمُرُ أُفْقَهُمْ بدخانِ

وقروحُ جسمكَ وهو تحتَ سياطهم قســـــماتُ صبحٍ يتّقيهِ الجاني

دمعُ الســـــجين هناك في أغلالِه ودَمُ الشهيدِ هُنا سَـــــيَلْتقيانِ

حتى إذا ما أفعِمـــــتْ بهما الرُّبا لمْ يبقَ غيرُ تمــــرّدِ الفيضان

إنّ احتدام النارِ في جَوفِ الثّرى أمــــرٌ يُثيرُ حفيظـــــةَ البركانِ

وتتابعُ القطراتِ يَنـــــزلُ بعدَهُ ســـــيلٌ يَليه تدفّـــــقُ الطوفانِ

فيموجُ يقتلـــــعُ الطغاةَ مزمجراً أقوَى مِنَ الجَبروتِ والسُّلطان

- رياح التغيير... في اليمن:

كان الشاعر اليمني أحمد محمد الشامي أحد الشخصيات المهمة في التاريخ اليمني الحديث، فهو بالإضافة إلى كونه أديبا شاعرا غزير الإنتاج، فهو أيضا سياسي متمسك بهويته الإسلامية، يملك رؤية سياسية وهو مشارك فعال في الثورة اليمنية التي اندلعت في منتصف القرن العشرين.

شارك شعره الحر في تشييع جثامين أبطال الثورة، مما قال في هذا الصدد قصيدة مأساة شهيد، صور فيها مأساة القاضي محمد الإرياني الذي قضى نحبه بعد عذاب طويل في معتقل حجة عام ١٩٥٣م جاء فيها:

غص فـــــي ظلام الســـــجن وانبش قبر تاريــــخ، رهيب

وابعــــث هايــــكل قصــــة خرســـــاء تجهش بالنحيب

في قصــــة الحــــق الصريع ونكبــــة الحر الغريــــب [1]

(١) رياح التغيير في اليمن، أحمد الشامي، ص٤٤٩.

- وفي المغرب:

وعلى الجهة الأخرى بعيدا هناك، الزعيم المفكر المغربي علال الفاسي صاحب كتاب دفاع عن الشريعة، في منفاه في الغابون، وهي مستعمرة فرنسية تقع في غرب وسط أفريقيا، يعاني الغربة والألم نتيجة تصديه للاحتلال الفرنسي لبلاده، وقيادته شعبه للتحرر الوطني، فيواسيه خاطره بهذه الأبيات:

ويا حميات اللـــــه زوري فربما	**بلمســــك أحيا لا أذوق حماما**
كذلك شاء الحاكمون بأمرهم	**وكان عـــذاب الحاكمين غراما**
نعم حكموا هاتي الجسوم وألموا	**وكانت جسوم العالمين حطاما**
فهل قدروا أن يحكموا الفكر والهوى	**ولا يتركوا الإيمان حيث أقاما**
إذن فليمدوا كل ما شــــاء غيهم	**فإني أرى النصر المبين ختاما**(١)

- وفي مصر:

والأديب د. نجيب الكيلاني يحتال في كتابة قصائده، ذات المضمون السياسي، فحينا يوقعها باسم سجين الجزائر، وحينا باسم مستعار وحينا يختبئ وراء التاريخ، وأحيانا أخرى يعزف عن نشرها.

ومما كتب في الشعر السياسي هذه القصيدة الثائرة وقد نشرها لاحقا في ديوانه أغاني الغرباء، تدور فيها دفة الحوار بين أب وابنته، تسأل البنت الصغيرة عن أخيها المسجون، وعهدها الغرير أن السجن للمجرمين، فيجيب الأب بقلب مفطور وقدم ثابتة:

---

(١) في منفى الغابون، علال الفاسي، ص١٩٥.

أخــــوك الحـــــر يــــا ليلى أراد النـــــاس أحـــــرارا

ويمقــــت شـــيمة العبدان والاذعـــــان إن ســـــارا

ويكـــــره شـــيعة الطغيان أن تبقـــى لنــــا جـــارا

أقامــــوا فــــي طرائقنـــــا وحـــول الفكر أســـوارا

هــــم الذؤبــــان يــــا ليلى أثـــاروا البغـــي والعـــارا

فأقســـم أن ســـيقهرهم وكان البـــر بالقســـم[1]

ولقد كانت الكثير من الأحزاب الفكرية والسياسية تدعو إلى الثورة على الظلم وإلى العدل واحترام الحريات، وكان ممن يدعو بهذه الدعوات الكاتب اليساري عبدالرحمن الشرقاوي وكانت منطلقاته يسارية ماركسية، لكنه كر النظر إلى تاريخ الإسلام ورجاله الأوائل فوجد ما يدعو إليه ماثلا فيه، فبدأ بالكتابة في الشخصيات الإسلامية وفق رؤية سياسية، فكتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم (محمد رسول الحرية) ويبدو أن كتابته هذه تمثل تحوله الفكري إلى الحل الإسلامي من اليسارية المحضة.

وقد تكاملت رؤيته هذه في مسرحيته الشعرية: (الحسين ثائرا)، وفيها تبرز الرؤية الإسلامية للإصلاح السياسي في ضوء ثورة الحسين رضي الله عنه في تصور الشرقاوي، ففيها يقول على لسان الحسين:

لا سليمان ولا قارون قد شاهد هذا المال كله

كل هذا، وبلاد الله قد فاضت بأبناء السبيل

(١) مذكرات د. نجيب الكيلاني، ج١/ ١٣١.

كل هذا وحوالينا أنين ضارع يحمل أوجاع اليتامى والأرامل

أين يمضي الأغنياء اليوم من حر زفير الفقراء؟!

كيف ينجو مترفو الأمة من طوفان دمع البؤساء

كم جياع شاهدوا قافلة المال

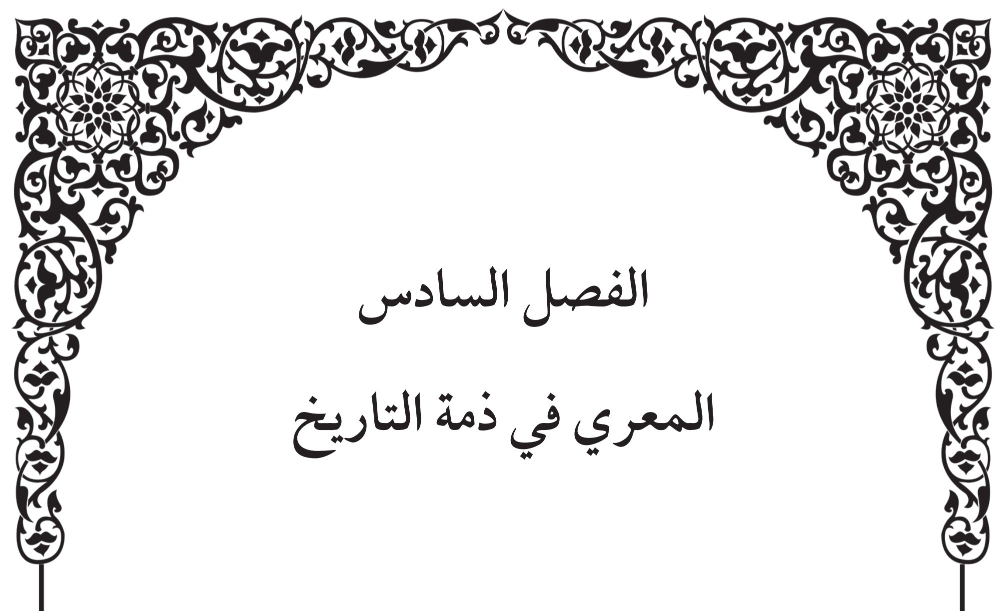
وما يدخل في أجوافهم إلا غبار القافلة

غير أن المال مال المسلمين

إن هذا المال مال مغتصب

إنني الآن ولي الأمر قد بايعني الناس لكي أعدل فيهم

وقد قلت في مستهل هذا الفصل أننا لو أعملنا البحث في تاريخ التعبير العربي، لوجدنا سيالًا من الكلمات الحرة التي بذلت في سبيلها دماء؛ وأزهقت لأجلها أرواح؛ فعاشت في ظلها أمم؛ وتحققت في أعقابها مشاريع النهضة، إنها الكلمات التي تحتاجها الأمة لإنعاش نبض الكرامة فيها، ولإحياء ذلك الرجل الذي قال كلمة الحق أمام السلطان الجائر، فغدا شقيقاً لسيد الشهداء.



الفصل السادس

المعري في ذمة التاريخ

- الزنديق.
- الثائر البطل ... الزنديق أيضاً.
- مؤشرات البراءة.
- منهج التحقيق.
- دفاعه عن المتهمين.
- جناية النسبة.
- جنون الشعراء.
- بين القول .. والقائل.
- في الختام.

الفصل السادس: المعري في ذمة التاريخ

أبو العلاء المعري هو أحد الشخصيات القليلة في التاريخ الإنساني التي دار حولها هذا الكمُّ الهائل من الجدل في عصره وما تلاه من العصور، وقد تجاذبت فيه الآراء على نحوٍ مفرِط، قلَّما يسلم تناوله من التحيُّز، إما له أو عليه، فهو متردِّد بين متعاطف معه أو متجافٍ عنه، وبين قائل بإيمانه أو حاكم عليه بالكفر والإلحاد.

• **الزنديق:**

فقديماً تحدث عنه ابن الجوزي والذهبي وابن كثير، وأشاروا إلى تردُّده، لكنهم نحَوا إلى زندقته وكفره، قال ابن الجوزي: «وأما أبو العلاء المعري فأشعارُه ظاهرة الإلحاد، وكان يبالغ في عداوة الأنبياء، ولم يزل متخبطاً في تعثيره، خائفاً من القتل إلى أن مات بخسرانه»[١].

والغريب أن كلامه قد اشتمل على حكم يتعلَّق بالنفْس ودوافعها، وهو ما لا يحيط به إلّا مقلِّب القلوب، فمن أين علم أنه خائف من القتل حتى تملَّكه الاضطراب والتعثير، ما حال دون كشفه لصريح كفره؟ نعم، يحتمل سبر النفْس وما تنطوي عليه من الدوافع والانفعالات في التماس البراءة من التُّهم، أما في الاتهام فالتجاسرُ عليه تكليف للنفس فوق طاقتها.

• **الثائر البطل... الزنديق أيضاً:**

وفي العصر الحديث أربى على ما سبق من تُهم بعض الكتَّاب والأدباء،

(١) تلبيس ابليس، ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤١٤ه – ١٩٩٤م، ص ١٤٣.

اختلفت دوافعهم فيما بدا من أقوالهم، وتباينت مناحيهم في دراسة المعري، لكنهم التقَوا على إلحاده وزندقته.

منهم الكاتب العراقي هادي علوي، إذ خلص في قراءته للمعري إلى أن تراثه يتمحور حول:

١ – أن الأديان السماوية مختلفة فيما بينها، ويترتب على ذلك أن مصدرها ليس واحداً.

٢ – التعارض الشديد بين العقل والدين، وأن إعمال العقل يؤدي إلى الخروج من الدين لا محالة.

٣– أن المسلمين قد أخذوا دينهم عن اليهود.

٤ – وجود التناقض في النص الديني، وقد استدلَّ هادي علوي بقول المعري في اللزوميات:

أَخَبرتنِي بِأَحَادِيـــثِ مُنَاقِضَةٍ فَرَابَني مِنْكَ قَـــولٌ غَيْرُ مُتَّفَقِ

يرى علوي أن في البيت رداً على قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1]، وقد رأى فيه المعري –بزعم علوي– اختلافاً كثيراً[2].

والشاعر جميل صدقي الزهاوي كذلك اهتبل هذه الضبابية عند المعري؛ ليتلبس بها وينفث من خلالها آراءه المضطربة ونزَقه الفكري، والذي لم تسلم منه مسلمات وثوابت، ففي ملحمته (ثورة في الجحيم) التي مطلعها:

(١) سورة النساء:٨٢.

(٢) أبو العلاء المعري، المنتخب من اللزوميات، هادي العلوي، ص ٢٥.

بَعْدَ أنْ مِـــتُّ وَاحْتَوَانِي الحَفِيرُ   جَاءَنِـــي مُنْكَرٌ وَجَـــاءَ نَكِيرُ

وفيها أعاجيب من التمرد والشك، بل والاستهزاء والسخرية، يظن أنه يجاري المعري في غفرانه، يقول متهكِّمًا من المفارقة بين سكان الجنة وسكان النار بزعمه، يقول عن الجحيم:

لَمْ أُشَــاهِد بَعْدَ التَّلَفُّتِ فِيهَا   جَاهِـــلاً لَيْسَ عِنْـــدَهُ تَفْكِيرُ

إِنَّمَا مَثْـــوَى الْجَاهِلِينَ جِنَانٌ   شَـــاهِقَاتُ الْقُصُورِ فِيهَا الْحورُ

ثُـــمَّ حَيَّانِي أَحَمَـــدُ الْمُتَنَبِّيْ   والمعرِّي الشَّـــيْخُ وَهُوَ ضَرِيرُ

وَكِلا الشَّـــاعِرَينِ بَعْدُ خِضَمٌّ   وَكِلا الشَّـــاعِرِينِ فَحَلٌ كَبِيرُ

يزهو بتمرُّده ويتشبَّه بالمعري، يجعل منه مَشجباً يُناط به التعلُّل والشرودُ، ويعلِّق عليه تخبُّطَه وانفلاته، يقول:

وإنَّ أكبرَ شـــيءِ فيكَ يُعجبُني   سُـــخْرِيةٌ بِتَقاليدٍ و عِصْيانِ

إنِّى تَتَلْمذْتُ في بَيتِي عَليكَ وإنْ   أبْلَتْ عِظامَـــكَ أزمانٌ وأزمانُ

فكلا الرجلين عريق في هواجسه وظنونه، ينفي ويُثبِت، ويلحد ويستغفر، ويجزم ويتردَّد، على حد قول د. محمد رجب البيومي(١).

ومعروف الرصافي أيضاً تبرَّأ من براءة المعري، إذ يعتبره قد حاد عن طريق النبوات، وأنه من العبث أن يحاول بعضهم تبرِئته من ذلك، ويقول أيضاً: «قد قلنا إن الرجل مؤمن بالله، مقرٌّ بعظمته وقدرته، وهذا لا ينافي معارضته للقرآن».

والغريب أننا حينما نسأله عن الدليل يفاجئنا بقوله: «على أن في تسميته

(١) الديوان المفقود للزهاوي، هلال ناجي، ص ٣٠٧.

بـ«الفصول والغايات» ما تشمُّ منه لمعارضة القرآن رائحةً فواحةً، فإن القرآن فصول وغايات أيضاً، كما عبر عنه الزمخشري في ديباجة تفسيره «الكشاف»»، ثم يقول: «إن في تسمية هذا الكتاب ب(الفصول والغايات) تلميحاً إلى معارضة القرآن»[١].

سياق هذه الحجة أن المعري أفاد العنوان من الزمخشري؛ لأن الزمخشري هو الذي قال أن القرآن الكريم فصول وغايات، وهنا تبلغ الحجة مداها في الضعف والتهافت، حينما نعلم ان المعري قد توفي عام ٤٤٩هـ، في حين لم يولد الزمخشري بعد؛ حيث ولد عام ٤٦٧هـ.

ولا أدري كيف ساغ للشاعر الكبير معروف الرصافي أن يتَّهم دين المعري في جريمة هي من أعظم الجرائم، وهي قيامُه بمعارضه القرآن الكريم باللجوء إلى حجة ضعيفة كهذه، أو الاستناد إلى مجرد الشعور والإحساس والشمِّ واللمح، وإنَّ اتهاماً كهذا لا يقبل فيه بدون التصريح واليقين.

ربما لم ترُقْ للرصافي براءة المعري؛ لأنه صنوه في التردُّد والتخليط، إذ إنه «الرصافي» كان في بعض أطوار حياته على شفير الإلحاد، وذلك في كتابه «الشخصية المحمدية»، الذي اكتظَّ بصنوف من المغالطات والمزالق المنهجية والعلمية، نجم منها تطاول سافر على القرآن الكريم والسنة المطهرة وشخصية الرسول ﷺ، والملفت في هذا السياق أنه استلفَ عباءة الشك من المعري؛ ليمرر آراءه الكليلة وتمرُّدَه على التراث؛ ليقول أنه ارتاد طريقاً مسلوكة دبَّت فيها أقدام الباحثين، فهو يزعم مثلاً أن الإسلام قد انتشر بالسيف لا بمعجزة القرآن، ويستشهد بالمعري:

(١) على باب سجن أبي العلاء، معروف الرصافي، ص ٦٣.

جَلَـــوا صارماً وَتلَـــوا باطلاً وقالُوا صَدَقْنا فَقُلْنــــا نَعَمْ[١]

أما جمال جمعة فقد نسي باب التكفير مفتوحاً -فيما يبدو-، وذلك في كتابه «ديوان الزنادقة كفريات العرب»، إذ يكدُّ قراءته العوراء في تراثنا الإسلامي، ويُجيل بصره العليل، ويغذُّ بحثه المتحيِّز في تاريخ الزندقة في قلب الحضارة الإسلامية؛ ليتعلَّق بأوهى الروايات لإكفار من شاء، حتى عدَّ من الزنادقة أبا محجن الثقفي، وعدَّ ما قاله في الخمر تشكُّكاً منه بيوم النشور، ما يجعل منه زِنديقاً متورطاً بالإلحاد، لقد فات تكفيره عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنهما- وهما يتباحثان في شعره، يسأل عمر: من أشعر الناس؟ فيجيب أبو الحسن: الذي أحسنَ الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق، قال: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله:

لا تَسْأَلِي النّاسَ عنْ مالِي وَكَثْرَتِهِ وَسَائِلِي القَومَ عنْ دِينِي وعنْ خُلُقِي

فقال عمر رضي الله عنه: أيَّدتني يا أبا الحسن، أيَّدك الله، فما زلتَ مؤيداً في كل خير، ثم قال له: قد صدق في كل ما ذكر لولا آفةٌ كانت في دينه من حبه الخمرَ، ولقد تركَها آنفاً، والأنَف من الكَرم، والكرَم من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢].

فقال عمر رضي الله عنه: «يأبى الله يا بني هاشم، إلّا أن يسوِّدكم في الدين والدنيا»[٣].

حوار بين العدالة العمرية والعِلم العلَوي، يقدِّر الموهبة، ويثمِّن المراجعة، في حين أن ديوان الزنادقة يكفِّر بالشبهة، ويهدر التصحيح والتوبة.

---

(١) الشخصية المحمدية، الرصافي، ص ٦٠٨.

(٢) سورة الحجرات:١٣.

(٣) شرح ديوان أبي محجن الثقفي، أبو هلال العسكري، ص ٣٠.

وعدَّ الكاتب من الزنادقة أبا الطيب المتنبِّي وعليَّ بن الجهم وبشار بن بُرد وصالح بن عبدالقدوس، وليس من نافلة هذه القائمة أبو العلاء المعري، إن الكاتب هنا في ديوان الزنادقة لم يتحدث عنه بطبيعة الحال إلّا زنديقاً مارقاً من الدين شاكاً بأركانه ومشكِّكاً فيها.

والأدهى من ذلك كلِّه أنه يعتدُّ عملية تنقيح التراث وتحقيق نصوصه، تصرُّفاً تدميريًّا يقع في مصافِّ الجرائم الثقافية الكبرى[١].

يبدو أن الكاتب وأمثاله يقعون تحت تأثير مغالطة شاعت في الخطاب الاستشراقي، مؤدّاها أن الإبداع الأدبي لا يصدُر بحال عن سالم الدين، ولكي تسلم لهم فرضيتهم عدُّوا تنقيح التراث جريمة لا تُغتفر.

كان يمكن لي أمام هذه الآراء والأحكام أن أصدقَ بزندقة أبي العلاء المعري، ولكني وجدت بعض العلماء والأعلام أصحاب المنهج الرصين في البحث العلمي قد انتهت بهم أبحاثُهم في تراث المعري إلى خلاف ما سبق، كالعلامة المحقق عبدالعزيز الميمني ومحمود شاكر ونديم الجسر وأحمد تيمور باشا وبنت الشاطئ.

وأمام هذا الإرث الفكري والأدبي البالغ التعقيد، يقف الباحث عن الموقف العلمي الرشيد من أبي العلاء المعري موقفاً شديد الحيرة والتردُّد، لكنني في تناولي لهذا الموضوع لا أعتزم الدفاع عن أبي العلاء المعري، وإنما أكتب لأتحرَّى الموقف الملائم والأقرب للحق، في الحكم على المعري وإخوانه المتهمين في التراث، وهم كُثر في القديم والحديث، مثل أبي العتاهية، وابن تيمية في نظر

(١) ينظر؛ ديوان الزنادقة، جمال جمعة، ص ٢٩.

خصومه، وابن المقفَّع وصالح بن عبدالقدوس، ورابعة العدوية وعبدالقادر الكيلاني، وجمال الدين الأفغاني وفهد العسكر... وغيرهم.

• **مؤشرات البراءة:**

في البداية أود أن أذكر أن أبا العلاء المعري رجل استثنائي مميز، فهو دائرة معارف متعدِّد العلوم والمواهب، فهو لغوي شاعر قاصٌّ فيلسوف مصنِّف، سلك طرقاً مبتكرة في التصنيف، تعلَّم القراءات وروى الحديث النبوي الشريف.

ثم إنه إنسان مثل سائر البشر، له حسناته وعليه سيئاته، طبعاً في حال ثبوت هذه السيئات بيقين، يضاف إليه أنه قد أفضى إلى ما قدم، وقد قال النبي ﷺ: «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم»[1].

وأسمى حسناته -فيما أرى- هو علمه بالأدب ودعوته إلى الله تعالى من خلاله، فقد وقف جل آدابه للدعوة الى الله تعالى وتمجيده وذكره وتسبيحه، والدعوة إلى الزهد في الدنيا والتقلُّل من مُتَعها والتزود للآخرة، ففي كتابه «الفصول والغايات» والذي كُفِّر لأجله يقول: «لله الغلَب، وإليه المنقلب، لا يُعجزه الطلب، بيده السالب والسلَب».

وفي «ملقى السبيل» يقول واعظًا:

ما في البسيطةِ منْ عبدٍ ولا ملِكٍ … إلّا حليفَ عنـــاءٍ يخدُمُ الأمَلا

يحثُّ نفساً على الإحسانِ عاجزةً … وقد أساءَ بعلمِ الواحدِ العمَلا

يرومُ بالسيفِ رزقاً جاءَ في عنُفٍ … ما كان يخطوه في خفضٍ لو اتَّكَلا

(١) سنن أبي داوود، الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر، رقم (١٠١٩)، ج ٣، ص ٣٣٩.

ويقول متعجباً من إلحاد الطبقة المثقفة:

عَجَبي للطَّبيـــبِ يُلحدُ في الخا   لقِ من بعدِ درسِـــهِ التَّشْريحا

ويكفيه في عالم الشعر مرثيتُه الدالية التي طبَّقت الأفاق، وفوَّقت لها الأحداق، ووقف منها دارسو الشعر والنقاد موقفَ الإجلال والإكبار، وقد كتبها في رثاء فقيه حنفي:

غيرُ مجدٍ فـــي مِلَّتي واعتقادِي   نَوحُ بـــاكٍ ولا ترنُّمُ شـــادِ

وشـــبيهٌ صوتُ النَّعِيِّ إذا قِي   سَ بصوتِ البشـــيرِ في كلِّ نادِ

أبكَتْ تِلكُـــمُ الحمامةُ أم غنَّ   تْ على فَـــرعِ غُصنِها الميّادِ

صاحِ هذِي قبورُنـــا تملأُ الرَّح   بَ فأينَ القبـــورُ منْ عهدِ عادِ

خفِّفِ الوطْءَ ما أظُـــنُّ أَديمَ   الأرضِ إلّا منْ هذهِ الأجســـادِ

إنها محراب من محاريب الحياة، وعزف جنائزي إيماني متفرِّد، نفحه وجدانية صادقة في فقه الوجود وفلسفته، ولو أخذتُ أستقصي هذه الأبعاد الإيمانية والنفحات الروحانية في إنتاج المعري لانتهى بي المطاف إلى مدوَّنة ممتدة، ولأسميتها بـ«أبو العلاء المعري واعظاً».

وفي هذا الصدد فإن عدداً من الباحثين في الأدب العربي وجدوا أن شعر الدعوة الإسلامية قد مثَّله مجموعة من الشعراء، مثل أبي العتاهية والسَّرِيَ الرفّاء وابن نباته السعدي، ويأخذك العجب حينما تعلم أن أبا العلاء المعري كان على رأسهم، تجد ذلك عند د. سفير بن خلف القثامي في رسالته «شعر الدعوة الإسلامية في العصر العباسي الثالث»، فقد وجد عند المعري غُنيته من شعر الدعوة

الإسلامية في العقيدة الإسلامية، والعبادات بأنواعها القلبية والقولية والعملية، ثم في الأخلاق الإسلامية والزهد والوعظ.

ثم إن المنهج العلمي الصحيح يقتضي النظر إلى الشخصية من خلال إنتاجها الأدبي والعلمي، بالتوازي مع الرواية التاريخية التي رُويت عنه في مدوَّنات التاريخ والتراجم، بل والأَولى أن يقدَّم الإنتاج الشخصي على مرويات التاريخ عنه؛ أي أن يُقدَّم ما قاله على ما قيل عنه، وهذا المنهج الذي سلكه محمود شاكر مع المتنبي، فانتهى إلى نتائجَ باهرة غير مسبوقة، أخفقت الرواية التاريخية في الإجابة عنها، فأوقعتنا في مغالطات جسيمة.

وهنا ينبغي إعمال التثبُّت فيما قال وما قيل عنه، والتثبُّت عنصر مهم في منهج التحقق الإسلامي، وترشيد النظر في المعارف، نصَّ القرآن الكريم عليه في قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[١]، فضلًا عن أقوال النبي ﷺ التي تعزز هذا المفهوم، إذ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع»[٢]، وقال ﷺ: «بئس مطية الرجل زعموا»[٣]، وفضلًا عن ترهيب النص الإسلامي من الاتهام أو الطعن في الذمم أو الأعراض من دون بيِّنة، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[٤]، هذا عدا عن التشديد في

(١) سورة الحجرات:٦.
(٢) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم (٥)، ج ١، ص ١٠.
(٣) سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، وزارة الأوقاف المصرية، دار الكتاب العربي، بيروت، رقم (٤٩٧٤)، ج ٤، ص ٤٤٩.
(٤) سورة الإسراء:٣٦.

أمر تكفير المسلم وسلب صفة الإسلام منه لقوله ﷺ: «إذا كفَّرَ الرجل أخاه فقد باءَ بها أحدهما»[١].

وعلى هذه الأصول قام صرح علم السَّنَد، وبهذا الصدد قال أحد أعلام هذا الصرح وهو الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، مشدداً على أهمية التثبُّت في نقل الوقائع والأخبار والحكم على الناس: «إن الذي يتصدَّى لضبط الوقائع من الأقوال والأفعال والرجال يلزمه التحرِّي في النقل، فلا يجزم إلّا بما يتحقَّقه، ولا يكتفي بالقول الشائع»[٢].

• **منهج التحقيق:**

وأمام هذا المنهج، فإنني وصلت حيال إتِّهام المعري إلى عدة مؤشرات، اضطرَّتني للتوقف عن قَبول ما اتُّهم به من زندقة وكفر؛ أهمها:

١- أن الرواية التاريخية عن زندقة المعري في كتب التاريخ والتراجم مضطربة، ولا تستند إلى أدلة كافية، وأغلب من روَوها وتناولوها هم من رجال الرواية والإسناد، وقد غلبت عليهم صفة الرواية وضوابط أهل الحديث، كابن الجوزي والذهبي وابن كثير، فقوَّموه راوياً للحديث ورجلاً من رجال الإسناد، فتشددوا في نقده واحتاطوا في ذلك، لما تناهى لهم من أخبار ومرويات حول سيرته وآرائه، وهو موقف يتجه فيما يبدو إلى صيانة الحديث النبوي الشريف.

٢- وجدتُ أيضاً أن الاتهامات الموجهة لأبي العلاء المعري في الغالب جاءت عرضاً، من خلال كتب التاريخ والتراجم، التي لم تُخصَّص للحديث عنه،

(١) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، رقم (١١١)، ج ١، ص ٧٩.

(٢) ذيل التبر المسبوك، السخاوي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص٤.

بل إنها كانت بصدد التاريخ أو التراجم له ولغيره، أما الكتب التي أُفردت للحديث عنه، والتي التزمت منهج التحقيق والبحث العلمي، ففي الغالب هي بين أمرين:

أ- تجزم بإيمانه، وتنفي عنه تهم الكفر جملةً وتفضيلاً، وتدافع عنه، وتمحِّص أخباره.

ب- ترى أنه قد ثاب إلى الإيمان بعد تخليط وتردُّد.

٣- أنه قد مُني بكثرة الحساد والخصوم، وقد شكى منهم في أكثر من موضع في شعره، فهو يقول فيهم مثلاً:

تعاطَـــوا مكاني وقـــد فُتُّهم فما أدرَكوا غيـــرَ لمحِ البصرْ

وقـــد نبَّحوني ومـــا هِجتُهمْ كما نبحَ الكلـــبُ ضوءَ القمرْ

وهنا يحتِّم علينا منطق العدالة والموضوعية، أن نضعَ في حُسباننا طبيعة الخصومات التي جرت في حياة المعري وأمثاله من الأدباء والمفكرين، وما لها من أثار على الاتهامات التي يُتَّهمون بها.

فأبو العتاهية مثلاً قد رُمي بالزندقة، اتَّهمه بذلك منصور بن عمار؛ وذلك لأنه لا يذكر الجنة والنار والبعث بعد الموت في شعره حسب زعم ابن عمار، والمشكلة التي لا تزال قائمة، أنه لا يزال لفيفٌ من الكتَّاب المعاصرين يكررون هذا الزعم.

وحينما قرأنا ديوان أبي العتاهية المطبوع المحقَّق، وجدنا الأدلة من شعره متظافرة على ذكره للبعث والنشور كقوله:

كلُّ نفْسٍ ســـتُوافي ســـعيَها ولها ميقاتُ يـــومٍ قد وجبْ

وحســـــابٌ وكتـــابٌ حافظٌ ومَوازيـــــنُ ونـــارٌ تلتهبْ

فنتأكد عند ذلك أن سبب الاتهام هو الخصومة، وأن الاتَّهام عارٍ عن الصحة، وسبب هذه الخصومة؛ أن أبا العتاهية قد انتقد ابن عمار في حكاية قصَّها، فزعم ابن عمار في أبي العتاهية ما زعم.

أما أبو العلاء المعري فقد ذكر هو نفسه أن جملةً من هذه الطعون هي من وضع الحُسَّاد عليه، فقد روى القاضي المنازي قال: «اجتمعت بأبي العلاء بمعرة النعمان، وقلت له: ما هذا الذي يُروى عنك ويُحكى؟ فقال: حسدني قوم، فكذبوا عليَّ، وأساؤوا إليَّ»[١].

كما أنه كتب رسالة أسماها «رسالة الضبعين»، كتبها إلى مُعزِّ الدولة شمأل بن صالح، يشكو إليه من رجلين كانا يؤلِّبان عليه، وينسبانه إلى الكفر والإلحاد[٢].

٤- من أسس البحث العلمي للتعرُّف على آراء الشخصيات وتحليلها؛ الوقوفُ على أكبر قدر ممكن ومتاح من الكتب والمؤلفات للشخصية المراد بحثُ آرائها، فإذا كان جُلُّ تراث هذه الشخصية ضائعاً، أو لا يزال قابعاً في خزائن المخطوطات، ولم يُتَح منها إلّا النزر اليسير، فإنه يستحيل أن نبني تصوراً يقينيًّا حول آرائها؛ لوجود عدة احتمالات تعتري هذه العملية البحثية:

أ- أن يكون آخر ما كتب ضمن تراثه المفقود، وفيه تتجلَّى آراؤه التي استقر عليها.

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة، القفطي، المكتبة العصرية، لبنان، ١٤٢٤ه، ٢٠٠٤م، ج٢، ص١٧٤.
(٢) الإنصاف والتحري، ابن العديم، دار الجولان للطباعة والنشر، سوريا، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٧م، ص ١٠٤.

ب- أن تتضمن مؤلفاته الموجودة بيننا نسبةً غير قليلة من الأقوال المنحولة له.

وفي هذه الحالة يصعب علينا أن نركن إلى ما بين أيدينا، لنبنيَ من خلالها على الشخصية تصوراً يقينيًّا.

وهنا ينبغي قبل أن نبنيَ حكماً على أبي العلاء المعري حول ما اتُّهم به، أن نسألَ حول إنتاجه سؤالين منهجيَّين بالغَي الأهمية، وهما: «كم كتاباً ألَّف المعري؟ وكم هو المطبوع منها؟» رأيت بأن أفضل من أحصاها الأديب سليم الجندي في موسوعته «الجامع في أخبار أبي العلاء» فإذا بها قد بلغت مائة وخمسة كتب، المطبوع منها لا يزيد على العشرة كتب؛ أي ما نسبته ١٠٪ تقريباً.

وحتى هذه العشرة بالمائة لم تسلم فيما يبدو من العبث والتغيير، فهل يصح أن نبنيَ موقفاً واضحاً يقينيًّا عن ما اتُّهم به المعري من خلال ١٠٪ من إنتاجه الفكري، خصوصاً إذا وضعنا في الاعتبار جهلَنا بأيِّها كان أخر ما كتب.

٥- ومن المؤشرات التي تدفع ببراءة المعري من التُّهم الموجهة إليه، أنه دافع عن نفسه، وتبرّأ من جملة هذه التُّهم، وهو مؤشر مهم يعزِّزه أيضاً، قيام المعري نفسه بالتماس الأعذار عن بعض الشخصيات المتهمة في التاريخ من الكتَّاب والشُعراء.

أما دفاعه عن نفسه فقد سُئل حول امتناعه عن أكل اللحم، وهو ما اتُّهم به في أنه سلك مسلك البراهمة في تديُّنهم بالامتناع عن أكل اللحم، يقول في ذلك: «..ولا يزعمُ أنه محرم، وإنما تركَه اجتهاداً في التعبُّد، ورحمة للمذبوح رغبة أن

يجازى عن ذلك بغفران خالق السماوات والأرض»[١].

ويقول عن نفسه من قصيدة:

أُقيمُ خَمسِي وصومُ الدهرِ آلفُهُ وأُدمنُ الذكْرَ أبْكارًا وآصالي[٢]

وقد كتب هذه القصيدة في سياق الدفاع عن نفسه من تهمة الزندقة، جاء في «نكت الهميان» أنه قال لرجل يقال له يوسف بن علي: «زعموا أني زنديق، اكتب... »، يقول: وأملى عليَّ قصيدة مطلعها:

أستغفرُ اللهَ في أمْنِي وأَوجالي منْ غَفلتي وتَوالي سُوءِ أعمالي

والتي منها البيت السالف.

- **دفاعه عن المتهمين:**

وفي «رسالة الغفران» اتخذ من الأسلوب الرمزي، الذي سلكه في إبداعه السردي متناً جارياً في شعاب الفكر، ما أتاح له فضاءً واسعاً للحديث عن تصوراته ورؤاه، والتي منها موقفُه من أعلام الأدب، وما رُموا به من تُهم، كان منهم شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت ؓ، والذي اتُّهم بالجُبن، يقول المعري في غفرانه: «ويقول قائل من القوم: كيف جُبنك يا أبا عبدالرحمن؟». فكان مما قاله المعري على لسانه: «إن ظهر مني تحرُّز في بعض المواطن فإنما ذلك على طريقة الحزم، كما جاء في الكتاب الكريم: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا

---

(١) المعري والشيرازي رسائل متبادلة، تصدير وتقديم: علي خلوف، دار جوران للنشر والتوزيع، سوريا، ط٢، ٢٠٠٠م، ص ٧٧.

(٢) الإنصاف والتحري، ابن العديم، ص ٤٣.

إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[1][2].

ودافع عن المتنبي في اتهامه بادِّعاء النبوَّة بقوله: «وحُدِّثت أنه إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال: هو من النَّبْوة؛ أي المرتفع من الأرض، وكان قد طمع في شيء قد طمع فيه مَن هو دونه، ثم قال: وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألِّهًا، ومثل غيره من الناس متدلِّها، فمن ذلك قوله:

ولا قابلاً إلاَّ لخالقِهِ حُكْمًا

وقوله:

ما أقدرَ اللـــــهَ أنْ يُخزي بَرِيَّته ولا يُصدِّقُ قومًا في الذي زعَموا

وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان؛ لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديُّنًا، وإنما يجعل ذلك تزيُّنًا، يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض من أغراض الخالية أم الفَناء، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون، وفيما بطن ملحدون»[3].

فالمعري كما قد علمت اتُّهم، وذاق مرارة الاتهام، فكانت له فرصة سانحة للدفاع عنهم فيما أتيح له من وسائل الدفع.

بل إنه قد ذهب إلى أبعد من ذلك، إذ دافع عن الحلاّج، والذي كان تراثُه أشدَّ التباساً ممن سبق، إذ قال: وكم افتري للحلاّج والكذب كثيرُ الخِلاج، وجميع ما ينسب إليه مما لم تجرِ العادة بمثله، فإنه المَيْن الخَبْرِيت لا أصدّق به ولو كُرِيت»[4].

(١) سورة الأنفال:١٦.
(٢) رسالة الغفران، المعري، دار الكتاب العربي، لبنان، ط١، ١٤٢٢ه، ٢٠٠١م، ص ١١٢.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٠٠.
(٤) المرجع السابق ٣٢٠.

فالمعري معنيٌّ بالأدب والشعر وأعلامهما، وانتهى إليه علم اللغة في زمنه، فكيف لا يحرِّر موقفه من هؤلاء الأعلام، وقد توجهتُ إليهم أصابع الاتهام !.

• **جناية النسبة:**

أشرت إلى أن الحسد هو أحد العقبات في تراث أبي العلاء المعري، وقد شكى من هذا مراراً، ومن آثار الحسد العبثُ بالتراث، إذ استغل الخصومُ الإعاقة البصرية التي يعانيها المعري، فنحلوا له من الأقوال ما يحلو لهم مما تضمن مَينًا وكذبًا، كان يرميه أهل الحسد بالتعطيل ويعملون على لسانه الأشعار، ويضمنونها أقوال الملاحدة قصداً لهلاكه(٥). وهنا تجدر الإشارة إلى أن تراثنا فيه ما فيه من الخطأ في نسبه الآراء إلى أصحابها، سواء كان بقصد أو بغير قصد، ويرجع هذا الخطأ إلى عدة أسباب:

١- الخطأ الراجع إلى الزيادة والنقص في الكلام.

٢- الخطأ الراجع إلى النقل من الكتب.

٣- فهم كلام الخصم على غير مراده.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قول الإمام الشَّعراني بحصول التحريف والتزوير في كتب ابن عربي، إذ يقول: «وما وُجد في كتبه مخالفاً لظاهر كلام العلماء مدسوسٌ عليه أو مؤوَّل»(٦).

ومنها ما شاع عند أهل التحقيق من حصول التحريف في كتاب «الإبانة» للإمام الأشعري، بل إن التزوير قد جاوز هذا الحد إلى نَحل الكتب إلى غير أصحابها،

(٥) أبجد العلوم، صديق حسن خان، ج٣/ ٧٢.

(٦) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الكابر، الشعراني، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م، ص ٣.

كنسبة كتاب «السر المكتوم» إلى الرازي، ونسبة كتاب «الفوائد المشوّق» إلى ابن القيم.

والمعري هو أحد المصابين بهذه الجائحة، إذ امتدت يد العبث إلى كُتبه، وزُوِّرت على لسانه أقوال وأشعار هو منها بَراء.

وقد وجدتُ أن عدداً من علماء الإسلام ومحقِّقيه؛ قد انتهت بهم رحلتهم مع المعري، إلى الإشادة به والاعتراف بعلوِّ كعبه، وسلامة دينه وبراءته من الزندقة والإلحاد، منهم المؤرخ ابن العديم، والعلامة المحقق عبدالعزيز الميمني، والعلامة محمود شاكر الذي جعل من أبي العلاء المعري مرتكز كتابه «أباطيل وأسمار»، فهو مجموع مقالات ردّ فيها على لويس عوض الذي زعم أن المعري قد تلقى العلوم اليونانية من راهب، وأنه قد شكَّكه في الإسلام، فعمد شاكر إلى منهج التحقيق الرصين الذي ينتهي إلى تكذيب هذا الزعم، وعائشة بنت الشاطئ، يضاف إليهم مؤخراً الباحث عبداللطيف عمر المحيمد، في رسالته العلمية «الخطأ في نسبة الآراء إلى أصحابها في الكتب الكلامية، دراسة تأصيلية تحليلية نقدية»، إذ إنه بعد ذكره لآراء العلماء في المعري، وتطبيقه لمنهج التحقيق في هذا الشأن، رجَّح أن يكون مؤمناً وأن الشعر الذي قد قرر فيه الإلحاد مدسوسٌ عليه، وما صح عنه منه قد تاب ورجع عنه، ثم أجمل الدلائل في ذلك[1].

والعلامة أحمد تيمور باشا، وهو سادن التراث العربي في زمنه بعد أن خاض غمرات المعري، وبعد البحث والتمحيص في كتابه «أبو العلاء المعري، نسبه، وأخباره، شعره، معتقده»، يقول: «والخلاصة؛ أن الذي ظهر لي من مطالعة

(١) الخطأ في نسبه الآراء إلى أصحابها في الكتب الكلامية، عبداللطيف عمر المحيمد، دار المقتبس، سوريا، ط١، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م، ص ٢٥.

مؤلفاته، أنه لم يكن ملحدًا كما يزعمون، بل كان مؤمنًا بالله وكتبه ورسله»[1].

وفي النتيجة التي وصل إليها الشيخ نديم الجسر، مفتي لبنان في زمنه، من خلال منهج معجِب وميزان لا يحيد، فقد وجد أنه من الحَيف الولع بشكِّه وإهمال إيمانه، فهو ليس من شأن المنصف الذي يريد معرفة الحق من رأي الرجل، وإنما السبيل إلى الحق أن نُنعِم النظر في كل أقواله، ونفاضل بينها بالبرهان.

ثم إنه عمد إلى فضاء التأويل الذي فيه مندوحة عن التُّهم، ففي قوله:

تُحطِّمُنا الأيامُ حتى كأنَّنا زجاجٌ ولكنْ لا يُعادُ لنا سبْكُ

والذي هو عمده القائلين بشكِّه في البعث، يقول الشيخ: لا يجوز أن يُصرف لإنكار البعث، بقدر ما يُصرف إلى رأي العلماء الذين قالوا إنما يكون بخلق جديد، ثم قال في خاتمة حواره حول المعري: «إذا عرفتَ كل هذا من كلام المعري وأنعمتَ النظر فيه، وذكرتَ للرجل استكانته وخضوعه إلى الله بتذلُّل لا يُتصوَّر الرياء فيه، علمتَ حق العلم، وأيقنتَ أن أبا العلاء -رحمه الله تعالى- لم يكن على تشاؤمه وسخطه على الحياه وتعجُّبه من أسرار الأقدار إلّا مؤمناً، بل من أصدق الناس إيماناً بالله وصبراً على بلائه»[2].

• ثلاثة أيام مع المعري:

عطفًا على قصة نظر المحققين لتراث المعري وانتهائهم إلى القول ببراءته من التهم، فإن الأديب علي أحمد باكثير قد قضى قدرًا صالحا من الزمن مع المعري يفي بالوقوف على حقيقة آرائه، وذلك في قصته التمثيلية «ثلاثة أيام مع رهين المحبسين».

---

(١) أبو العلاء المعري، أحمد تيمور باشا، دار الآفاق العربية، مصر، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م، ص١٦٠.

(٢) قصة الإيمان، نديم الجسر، لبنان، د. ت، ص ١١٧.

تخيل الكاتب باكثير -وهو الماهر في استنطاق التاريخ- في هذه الأيام الثلاثة حوارات متعاقبة جرت بين المعري وبين بعض الشخصيات من أصدقاء وأعداء، يبدو لي أن النظر الفاحص والتأمل الواعي في تراث المعري، بالإضافة إلى الحس الأدبي الذي تحلت به رؤية باكثير، جعلته يتجاوز ببصيرته الحجب الكثيفة التي أحاطت بشخصية المعري، ولا استبعد أن يكون قد هاله حجم التهم التي رمي بها المعري وظلت تتراكم عبر التاريخ.

تحدث باكثير في قصته هذه على لسان المعري، تقمص شخصيته وأخذ يدافع عن نفسه، قيض الله للمعري أديبا مشاركا له في حرفته ليفض غبار الوهم عن حقيقة توجهاته الدينية.

مما جاء في هذه القصة التمثيلية؛ هذا الحوار بين المعري وبين أحد خصومه المولعين في نقده أبي يوسف القزويني، في هذا المقطع يزعم أبو يوسف هذا أن المعري قد هجاه فيقول المعري:

أبو العلاء: معاذ الله أن أهجو ضيفي.

أبو يوسف: لا غرو أن هجوتني فقد هجوت من هم خير مني!

أبو العلاء: ويحك إني لأكره ما يتعاطى الشعراء من الهجاء، وقد أسقطت هذا الباب من شعري، فما هجوت أحداً قط.

أبو يوسف: صدقت يا أبا العلاء، لم تهج أحدا إلا الأنبياء!!

أبو العلاء: [متألما] الأنبياء!

أبو يوسف: نعم ... ألست القائل:

أفيقوا أفيقوا يا غـــواة فإنما ديانتكـــــم مكر مـــــن القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا فبادت ســـنة اللؤماء

أبو العلاء: بلى قد قلت ذلك ولكني ما عنيت الأنبياء، فإنهم لم يجمعوا حطامًا وإنما جمعه آخرون فإياهم عنيت.

أبو يوسف: وما تقول في قولك:

إذا رجـــع الحصيف إلى حجاه تهاون بالشـــرائع وازدراها؟

أبو العلاء: قلت: المذاهب لا الشرائع.

أبو يوسف: بل قلت الشرائع.. هكذا رويته عن تلاميذك.

أبو العلاء : سامحهم الله.. يخطئون الرواية عني وأنا بعد حي!

أبو يوسف: بل هكذا أمليت عليهم فلا تتنصل!

أبو العلاء: أو قد ظننت أنني أتنصل؟.. إذن فاروه عني كما تشاء، فليس بين المذاهب والشرائع كبير فرق فيما قصدت.

أبو يوسف: أو تزدري الشرائع يا شيخ، ثم تصلي الضحى وتقول إنك مسلم؟!

أبو العلاء: ويحك إني ما ازدريتها إلا لأني مسلم.

أبو يوسف: إنك تقصد شريعتنا.

أبو العلاء: نعم.. كيف لا ازدريها اليوم وقد صار علماؤها يرون الماخور يبنى بجوار الجامع في بلدتهم فلا ينكرون.

مساجدكم ومواخيركم سواء فتبا لكم من بشر!

أبو يوسف: إنما تتكلف هذا التأويل تقية منك.

أبو العلاء: يغفر الله لك.. إن كنت لا أخشى الله ربي فكيف أخشى من دونه؟

(يتنهد) ما للناس ومالي؟ قد تركت لهم دنياهم فماذا يبتغون عندي؟

أبو يوسف: بل تركت لهم الآخرة كذلك!

أبو العلاء: (في أسى) سامحك الله يا أبا يوسف!

حورفت في كل مطلوب هممت به حتى زهدت فما خليت والزهد

- **جنون الشعراء:**

هناك أحد الأبعاد المهمة، التي بدأت الدراساتُ المعاصرة تكثِّف البحث فيه وهو البُعد النفسي، وقد تزامن هذا مع تطور العلوم الاجتماعية والنفسية في العصر الحديث، فقد أضحى الإنتاج الأدبي فضلا عن الحمولة الفكرية والعلمية التي يشتمل عليها، يحمل أيضاً دلالات نفسية صارت متاحة تحت مجهر البحث العلمي المعاصر، وعلى الخصوص التراث الأدبي والعلمي الذي ينتمي إلى شخصيات مثيرة للجدل، كأبي نواس وابن عربي والحلاَّج بالإضافة إلى المعري، فقد درس الأديب محمد النويهي شخصية أبي نواس من الناحية النفسية مستدلاً على ذلك بإنتاجه الأدبي.

كما تعرَّف العقاد على نفسية ابن الرومي الشاعر العباسي من خلال شعره، إذ وجد في ديوانه ما يدلِّل على مناحي نفسه وشطط بعض آرائه وجُنوحه إلى الشك، وشدَّة الهجاء والتطيُّر، فاكتشف أنه رجل سقيم الجسم، مختل العقل، مختل الأعصاب، حادُّ الإحساس، سريع التهيج، جامح الخيال، كثير المخاوف، شاذ غريب الأطوار، منكمش إلى ذاته، منطو عليها[1]، وقد قال النويهي حيال هذه

---

(١) ينظر: ابن الرومي حياته من شعره، عباس محمود العقاد، المكتبة التجارية، مصر، ط٦، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، ص ١٦٠.

المؤشرات النفسية:

«إننا حين نصدر تلك الأحكامَ العامة يكفينا أن نفهم ما هو العقل، وما هي الأعصاب، وما هو الجهاز الجنسي، وكيف تحدث الاختلالات النفسية على أثرها، وهو وحدهَ سيزيد من فهمنا لابن الرومي، بل سيزيد من عطفنا وتسامحنا معه ومع أشباهه»[١].

وأقرب الناس شبهاً به في تصوري هو المعري، فيما نُقل إلينا عنه من أقوال متضاربة، تحمل المعنى ونقيضه إن صحَّت روايتها عنه ونسبتها له.

وبُعد النفس البشرية وأطوارها هو أحد الأبعاد التي أصبحت محلَّ اهتمام النقد الأدبي، حتى غدا أحد مناهجه المعاصرة، بل ومدارسه النقدية الحديثة، فـ«طه حسين» في رسالته العلمية «تجديد ذكرى أبي العلاء»، قد أكد ضرورة تزود الباحث في الأدب وتاريخه بقدرٍ كافٍ من العلوم الإنسانية، ومنها علم النفس وعلم الاجتماع[٢].

وقد قال أصحاب هذا المنهج: إن الأديب من خلال عمله الأدبي قد يكون في حالة لا شعورية يخفِّف عنه القدر الزائد عن احتماله، وينفِّس عن النزعات الفطرية والرغبات المكبوتة في اللاشعور، بل إن منهم من ذهب إلى أن هناك علاقةٌ بين الفن والمرض العصبي[٣]، ولم يسلم هذا المنهج من النقد.

---

(١) ينظر: ثقافة الناقد الأدبي، د. محمد النويهي، مكتبة الخانجي، مصر، ط٢، ١٩٦٩م، ص٧٩.

(٢) ينظر: تجديد ذكرى أبي العلاء، ضمن كتاب: من تاريخ الأدب العربي، طه حسين، دار العلم للملايين، لبنان، ط ٥، ١٩٩٥م، ص ٢٢١.

النقد الأدبي الحديث، د. علي المنصوري، دار عمان، الأردن، ط ١، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص ٢٣.

(٣) ينظر؛ مناهج النقد الأدبي الحديث، د. وليد قصاب، دار الفكر، سوريا، ط ٣، ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م، ص٦٢ - ٦٣.

ولكني أتصور أن هناك قدراً لا مناص من الاتفاق عليه، وهو يتصل بحالات الشذوذ والاضطراب والتردُّد في الإنتاج الأدبي أو الفكري، وهو ما حدا بـ«د. عادل الزايد» أستاذ علم النفس إلى تشخيص شخصية الحلاّج من خلال إنتاجه، إذ يرى أنه يعاني من اكتئاب ومن اضطراب ثنائي القطبية[(١)].

والقراءة النفسية هذه لم تكن بمنأى عن بعض النُّظَّار، في أدب أبي العلاء المعري، مثل طه حسين، و نديم الجسر الذي وجد في النوازل التي حلت بأبي العلاء سبباً وجيهاً لشؤمه وتردُّده واضطراب آرائه، إذ وجد نفسه من أول حياته كفيف البصر، مشوَّه الوجه، مجبوراً على العزلة والحرمان من نشاط الحركة، معرَّضاً لسوء الهضم يائساً من الناس، فهو يرى أنه من الطبيعي أن تُنتج هذه الحال النفسية المأزومة، شكاً وتبرُّماً وسخرية وشؤماً تعاظم من اختلاف الحظوظ[(٢)].

وهو ما أتاح الفرصة لبعض الكتَّاب بمقارنة المعري بسواه من الفلاسفة الذين غمَّهم من الحياة ما غمَّه، فالكاتب أحمد الحوفي[(٣)] يقارنه بالفيلسوف شوبنهاور في الشؤم والعزوبة والسخط، إذ كانت آدابهما مخاضاً لما تواتر عليهما من طوارق الحِدْثان.

في هذه الحال المختلطة المتداخلة والتوجهات المتشابكة، في الاتهامات الموجهة لأبي العلاء، تُرتكَب الكثير من المغالطات في اتهام المعري، والتي تجد في الاضطراب في آرائه، وحصول الشكِّ عنده أرضاً خصبة لتجريمه وزندقته.

والعاصم من هذه المغالطات المفضِية إلى اتهام المعري عدة أمور:

---

(١) ينظر: تشخيصات نفسيه عبر آلة الزمن، د. عادل الزايد، آفاق للنشر، الكويت، ط١، ١٤٤٠ه، ٢٠١٩م، ص ٣٥٩.

(٢) قصة الإيمان، نديم الجسر، ص ١٦٣.

(٣) ينظر: في صحبة الأدب القديم، د. أحمد الحوفي، نهضة مصر، مصر، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٢٣.

١- أن التُّهم الموجهة إليه لم تثبت بيقين، إذ أن خصومه قد تكالبوا عليه مستغلين بذلك الإعاقة البصرية التي كان يعاني منها، وقد شهد هو بذلك كما مرَّ.

٢- الصفحة الناصعة من حياة المعري، من الدعوة إلى الله والوعظ الإيماني، والسيرة العلمية التي امتاز بها حتى لُقِّب بشيخ المعرَّة.

٣- دفاعه عن نفسه ونفيُه ما نُسب إليه من أقوال باطلة.

٤- أن اتهامه في التاريخ والتراجم جاء مجملاً، لا يستند إلى أدلة كافية يُطمأَن إليها، أما البراءة من التُّهم فقد جاءت مفصَّلة في كتب مستقلة، وقاعدة الجرح والتعديل على العكس من ذلك، إذ تقضي بالتفصيل في القدح، والإجمال في التزكية والمدح.

٥- أنه قد دافع عنه علماء محقِّقون، لما رأوا أن قاعدة الاتِّهام مهتزَّة ركيكة كما مرَّ.

- **بين القول.. والقائل:**

لا يبقى لنا في النهاية بعد تهافت أدلة اتِّهام أبي العلاء المعري أمام الاعتبارات السابقة إلّا أن نحاكم القول لا القائل، فبوسعي أن أحاكم القول وأذهبَ إلى خطئه أو صوابه، لكن ليس بوسعي أن أحاكمَ القائل لعدم ثبوت نسبة هذه الأقوال له، وهو المنهج الذي انتهى إليه ابن تيمية حينما سُئل عن قول الجنيد: «انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة».

فجرى ابن تيمية في منهجية مُحكَمة، للتعامل مع هذه القضية من خلال خمس خطوات:

أولاً: احتكم إلى قاعدته المعرفية، فقال: «... فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد».

ثانياً: عزا إلى ما ندَّ عن قاعدته المعرفية مما يمكن الرجوع إليه، وقال: «وفيه نظر هل قاله؟». ويقصد هنا ضرورة توسيع دائرة البحث عن حدود القاعدة المعرفية الشخصية، واللجوء إلى مظانِّ هذا القول مما يتجاوزها، للتحقُّق من كونه قاله أم لا.

ثالثاً: الرجوع إلى شخصيته العلمية، وجعلها ميزاناً لما ينسب إليه من أقوال، هل تلائمها أم لا؟.

يقول: «ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود».

رابعاً: الصيرورة إلى التأويل، ففيه مندوحةٌ عن الاتِّهام وملجأ إلى السلامة، إذ قال: «فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه، لم يُرِد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم، فإن الجنيد أجلُّ من أن يريد هذا».

خامساً: محاكمة القول لا القائل، يقول: «وهذا الكلام مردود على من قاله»[1].

بل إن الشيخ أحمد زروق الذي يسعى جاهدا لرأب الصدع بين أهل الحقيقة وأهل الطريقة، قد وجد أن أهم أدوات فك النزاع بين المدرستين هو النظر إلى القول دون القائل، وذلك لأنه تحول دون إدانة القائل حجب من:

(١) ينظر: مجموع فتاوي ابن تيمية، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، ج١١، ص ص ٣٩١ - ٣٩٣.

١- الثبوت التاريخي.

٢- القدرة التأويلية.

وأن التجاسر في اقتحامها أدى إلى نزاعات مستمرة بين المدرستين عبر التاريخ، لذلك فهو يقول حيال الشخصيات الصوفية التي دار حولها الكثير من اللغط: فليتق المؤمن ذلك مشفقا على دينه فارا من موارد الغلط راجعا لأصول الاعتقاد ، قائما مع الحق بالكلام في القول لا في القائل، وقائلا في مثل أولئك القوم: ما كان من قولهم موافقا للكتاب والسنة فأنا اعتقده، وما لا، فأنا أكل علمه إلى أربابه، منزها قلبي عن اعتقاد ظاهره، وإياهم كذلك[١].

وقال: رمي جماعة بالحلول مع أنه كفر كالحلاج.... وابن عربي وابن الفارض وابن سبيعة والظن بهم براءتهم، ولكن ضاعت عنهم العبارة عن حقائق صريح العلم، فأدت بظاهرها ما يتوهم مع براءتهم منه، هذا معتقدنا فيهم وعند الله الوعد[٢].

هذه الرصانة في المنهج؛ هي التي حدَت بالشيخ عبدالكريم الخطيب إلى التوقف في شأن أبي العلاء، والحكم على مُعتقده، واللجوء إلى التسليم لله تعالى في أمره، وأنه هو الأدنى إلى الحق والأقرب إلى السلامة، أما تراثُه فإننا نفوِّق نظرنا إليه، ونزِنه في ميزان الحكم، فنقول: هذا القول صحيح أو فاسد مقبول أو مردود[٣].

---

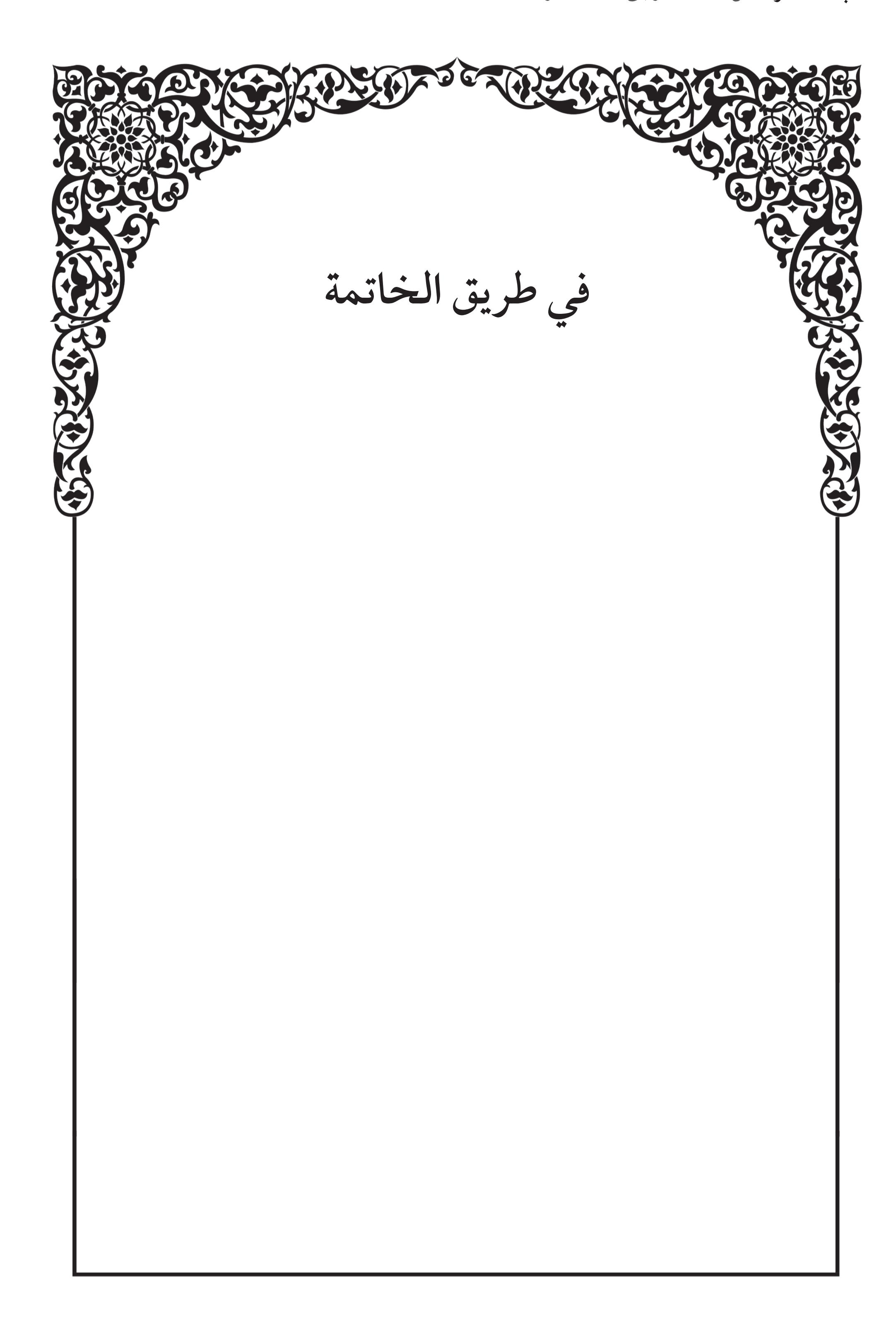
(١) النصيحة الكافية، أحمد زروق، ص٧٧.

(٢) كفاية المحتاج، التنبكتي، ص٢٤٤.

(٣) ينظر: رهين المحبسين أبو العلاء المعري بين الإيمان والإلحاد، عبدالكريم الخطيب، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م، ص ٣٠.

- **في الختام:**

وفي نهاية هذا الحوار مع جملة هذه الحقائق والأفكار؛ أرى أن هناك العديدَ من الشخصيات القديمة والمعاصرة التي انتابتها سهام الجَرح والإزراء، وقد تزيَّدت ألسنة الناس في أعراضها، كم من شخص قد اتُّهم في دينه أو مُعتقده أو ولائه أو سلوكه، نحن بأمسِّ الحاجة إلى إعمال هذا المنهج معه لتفادي مهالكَ جسيمة، منها (كراهية، حقد، تصنيف، إقصاء، تضليل، ظلم)، يضاف إلى ذلك حرمان المجتمع من مواهب المدَّعى عليه، وللسلامة من هذا المنحدَر كانت هذه القواعد العاصمة، التي طبَّقتها على أبي العلاء المعري المتهم البريء، للظفَر ببراءته المظنونة من التُّهم المفتراة، لننتهيَ إلى أن تهمتَه ظلمٌ، وبراءتَه سلامةٌ، والحقيقة المأمولة عصية على الظفَر، فهي متدلِّهة في رحم التاريخ، والمعنى بين ضلوع الشاعر يرفل في عالمه، بين عالمنا وعالمه برزخ لا يبغيان، رحم الله المعري فقد خانته الذاكرة فاستبدَّت به الذكرى.



في طريق الخاتمة

في طريق الخاتمة

ينبغي ألا تكون لهذا الكتاب خاتمة، ما دمت أتحدث عن أدب الفكرة، لأن الأفكار لا تنتهي فهي مستمرة وأن ما كتبته من فصول ما هي إلا قبسة منه، وذلك لأنه لا أدب إلا ويولد من رحم الأفكار، والأفكار متجددة أبداً لا يزينها في الأبصار إلا رونق الآداب والأشعار، لكنها كلمات على سبيل الخاتمة؛ حيث إن أفكار هذه الورقات قد أسلمتني إلى عدة نتائج وها أنذا أسوق جملتها:

• **أولاً**: أن الفكرة لا تروج رواجاً يليق بمحتواها، وتبقى بقاءً يكافئ منتهاها، إلا إذا كان حائكها وحاكيها قد أتقن صنعة الأدب ومهر في الثقافة؛ حيث يلزم الكاتب للتعبير عن فكرته التالي:

١- معرفة علوم اللغة النحو والصرف والبلاغة، إذ أنها مادته الأساسية التي سيعبر بها.

٢- التزود بالأدب، والتعرف على أساليبه، والاطلاع على روائعه وأعلامه وتاريخه.

٣- ممارسة الكتابة بشكل مستمر، مع الحرص على عدم النشر إلا بعد اكتمال العمل الأدبي، من حيث تمام الفكرة وحسن التعبير عنها.

٤- توسيع دائرة الثقافة، بالاطلاع على العلوم الإنسانية والفلسفة والتاريخ والسياسة، ومتابعة الجديد في عالم الكتابة.

هذه هي جملة الأمور التي تشكل للكاتب شخصيته الإبداعية.

الكتابة اليوم تعاني من تلوث فكري قد ضرب بأطنابه في تخومها، مئات الكتب الصادرة التي لا تحفل بعمق ثقافي، أو فكرة محبرة، أو جمال في المفردة والتركيب، ويربو على ذلك أخطاء فادحة في اللغة وسطحية في الفكرة.

• **ثانياً**: في فكرة السيرة الأدبية للحركة الإسلامية، وفكرة أبو العلاء المعري في ذمة التاريخ، تبدت لي أهمية القراءة الأخرى أو الثانية لما شاع من أفكار، في حقلي التاريخ والأدب، حيث إن الفكر الجمعي قد استسلم لها وسلم بها، واكتفى بالقول أن التيار الإسلامي لم يسهم في الحركة الأدبية الإبداعية بل أن موقفه منها كان سلبياً، أو أن أبا العلاء المعري كان مغموصاً عليه بالإلحاد عاش عليه ومات، وأنه أحد أعلام ديوان الزندقة في الحضارة الإسلامية، لكن القراءة الأخرى لهذه الأفكار المسلم بها قد كشفت لنا عن واقع مختلف إلى حدٍ كبير.

• **ثالثاً**: الأفكار التي تناولتها في الكتاب ماهي إلا نماذج لو استع بي الزمن لزدت فيها.

- أما **الفكرة الأولى**: وهي السيرة الأدبية للحركة الإسلامية فإنني فيما كتبت ألمع ولست أوسع؛ حيث إن الأحداث الساخنة التي عاشها التيار الإسلامي قد أنضجت إبداعه الأدبي، لكن تنكر الإعلام أنذاك والذي كانت جل وسائله في حوزة السلطة، وحيث إنها قد حجبت زمرة منه عن الرأي العام، جعل من الضرورة فتح هذا الملف من جديد، والتمعن فيه للخروج بنتائج جديدة.

- وأما **الفكرة الثانية**: فهي ميدان رحب من الأفكار الخلاقة، وقد تنافست فيه الأمم قديماً من خلال الملاحم، التي رسخت قيم البطولة والتضحية والشجاعة والانتماء، وحديثا من خلال الإنتاج الإعلامي السينمائي الضخم، وقد قدم الفكر

العربي قديماً بدائع خالدة، مثل كليلة ودمنة وأدب الوصايا والأمثال العربية، ولا يمكن للأدب أن يكون مربياً يروج للقيم دون أن يكون مشتملاً على فكرة، فهو من ألصق الموضوعات في أدب الفكرة الذي نحن بصدده.

- وأما **الفكرة الثالثة**: لو أدركته لوليته القضاء، فهو شكل فريد لأدب الفكرة وللبعد التربوي في الأدب، كان النموذج فيه هو قراءة عمر بن الخطاب ﵁ القيم التربوية في شعر زهير بن أبي سلمى، التي نحتاجها لقراءة الشعر القديم والمعاصر.

- وأما **الفكرة الرابعة**: الملاحم الشعرية من التاريخ إلى الأدب؛ فحمولتها قيم نبيلة؛ انتماء وبطولة وتضحية وشجاعة، وقيم فنية لغة وحوار، ومع ظهور الموسوعات الشعرية، ونشر الدواوين المغمورة منذ القرن التاسع عشر، فقد ظهرت محاولات جادة أخرى في الكتابة في أفق الإبداع العربي.

- وأما **الفكرة الخامسة**: مدونات في أدب الإصلاح السياسي، فهو طرح خجول تحكمه الظروف؛ لكنه حري بأن يلتمس ويدون، والأدب المعاصر كان صدى لافتاً لما تفطرت به الأرض العربية من الآلام والجروح، ولما تعاقب عليها من جوائح الاستعمار والاستبداد.

- وأما **الفكرة السادسة**: «المعري في ذمة التاريخ»، فكم من معري يعيش بين جوانح التاريخ، يتردد بين سر مفضوح وحقيقة مكتمة، ينتظر سترة النجاة المنهج القويم، الذي يخلصه من أوزار التعصب والرؤية النصفية.

هذا ما سنح له الوقت، ورشحته القريحة، وسمح به القلم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

٢١/ ٨/ ٢٠١٩م

فهرس الموضوعات

الموضوع **صفحة**